قضية إنكار النبوة

" عرض ومناقشة "

إعداد

د/ السيد على أبو طالب

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد

فإن الأنبياء هم هداة الخلق إلى الحق، اصطفاهم الله تعالى واجتباهم، وصنعهم على عينه ، وجعلهم فى قمة الكمال البشرى والسمو الإنسانى، فوجب لهم تفصيلا: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، وأوجب لهم إجمالا كل كمال وسمو بشرى وتتجلى أهمية هذا البحث فى صلته الوثيقة بالعقيدة الإسلامية، فلا شك أن مبحث النبوة يمثل ثلث مباحث علم الكلام ، فمباحث هذا العلم كما هو معروف [إلهيات – نبوات – سمعيات].

وإذا كان الإيمان بالرسل يمثل أصلا من أصول الإسلام، وركنا أساسيا من أركان عقيدته فإنكار النبوة نقد لهذه العقيدة وكفر بواح، ولما كان موضوع هذا البحث "قضية إنكار النبوة : عرض ومناقشة" فقد قمت فيه – بقدر الطاقة – بعرض شبه المنكرين، ثم عقبت على كل شبهة بالرد والتفنيد، وقد اشتمل هذا البحث على فصلين هما: الفصل الأول، وعنوانه "دراسات حول قضية النبوة، ويتضمن هذا الفصل المباحث الأتية:-

المبحث الأول: النبوة اصطفاء من الله وليست اكتسابا.

المبحث الثانى: حاجة البشر إلى الرسالة.

المبحث الثالث: عقيدة الإيمان بالرسل.

وأما الفصل الثانى فعنوانه: " المنكرون للنبوة وشبههم" ويتضمن المباحث الأتية:-

المبحث الأول: الدهرية وإنكار النبوة.

المبحث الثانى: البراهمة وإرسال الرسل.

المبحث الثالث: الماركسيون وموقفهم من النبوة.

المبحث الرابع: اليهود وأنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث الخامس:النصارى وأنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وها نحن نشرع بمشيئة الله تعالى فى عرض البحث راجين من الله تعالى أن يحظى بقبول القارئين من الأساتذة والباحثين، وينفع به، ويجعله فى ميزان حسناتنا يوم الدين، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول

النبوة اصطفاء من الله وليست اكتسابا

إن الطرق التى اختارها الله تعالى ليرشد بها الإنسانية إلى معرفة طريق الحق والخير، ويخرجها من الظلمات إلى النور، هى المعروفة باسم النبوة، وأنبياء الله تعالى ورسله هم رجال الهداية والإرشاد إلى طريق الحق والاستقامة، فالنبوة تكليف من الله تعالى لمن يختاره ويصطفيه، وبعده إعدادا تاما لتلقى هذا التكليف والقيام بما يقتضيه (إنها سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوى الألباب من خلقه، ليزيح بها عللهم، فيما قصرت عنه عقولهم ، من مصالح الدنيا والآخرة"[١]

والنبوة بهذا المفهوم هبة من الله تعالى واصطفاء واجتباء منه سبحانه لمن أراد من عباده، لا يمكن اكتسابها والوصول إلى مرتبتها بممارسات شخصية من نحو التأمل الفكرى الطويل، أو نحو القيام برياضات روحية معينة، كالزهد والعزلة والانقطاع عن الدنيا بملازمة الخلوة والعبادة والتأمل، كما يزعم الفلاسفة؛ إنها ليست صناعة بشرية، إنها بكل ما تحتويه من إعداد وتربية، ووحى، وتشريع، وتكاليف ذات صبغة وأبعاد إلهية، وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى فى كثير من آياته. فقال سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (آل عمران:٣٣) وقال تعالى عن أدم عليه السلام (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (طـه:١٢٢) وقال تعالى فى سورة الأنعام بعدما ذكر ثمانية عشر رسولا " (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الأنعام:٨٧) وقال فى حق موسى عليه السلام (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف:١٤٤) كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أيضا (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طـه:٣٩) وقال تعالى (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طـه:٤١)

---

١) شرح العقائد النسفية – صـ١٢١ التفتازانى . تحقيق- طه عبد الرؤوف سعد – الأزهرية للتراث.

يقول بعض الباحثين :-

(إن من الواجب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم، وصدقهم فى أقوالهم وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار، وتنفر منه الأذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية[١]

ونرى الشهرستانى يقول حين يتحدث عن النبوة والأنبياء" قال أهل الحق: النبوة ليست صفة راجعة إلى نفس النبى، ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه، ولا استعداد نفسه بما يستحق به اتصالا بالروحانيات، بل رحمة من الله تعالى ونعمة يمن بها على من يشاء من عباده، فالأنبياء خيرة الله فى خلقه وحجة الله على عباده، والوسائل إليه وأبواب رحمته وأسباب نعمته (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس "إن الله اصطفى آدم ونوحا" الآية، فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة، يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق، فيرقيهم مرتبة مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكا وأنزل عليهم كتابا)[٢].

وقد حكى البيجورى فى شرحه على الجوهرة إجماع المسلمين على هذا فقال): فالذى ذهب إليه المسلمون جميعا أن النبوة خصوصية من الله لا يبلغ العبد أن يكتسبها ، ويفسرونها باختصاص العبد سماع وحى من الله تعالى بحكم شرعى تكليفى سواء أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ)[٣]

---

(1) رسالة التوحيد صـ٧٧

(2) نهاية الإقدام – الشهر ستانى صـ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، وغاية المرام صـ٣١٧ فقد قرر الآمدى فيه نفس المعنى.وانظر:
تفسير المنار حـ٨ صـ٣٤ – الهيئة المصرية لدار الكتاب سنة ١٩٧٤.
تفسير التحرير والتنوير / الشيخ محمد الطاهر" ابن عاشور –جـ٨/ القسم الأول/ صـ٥٤ – ٥٥ / الدار التونسية للنشر .

(2) نهاية الإقدام – الشهر ستانى صـ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، وغاية المرام صـ٣١٧ فقد قرر الآمدى فيه نفس المعنى.

(3) شرح البيجورى على جوهرة التوحيد – صـ ١٥٠-١٥١ طابعة خاصة بالمعاهد الأزهرية سنة ١٩٧٩.

وإذا كانت النبوة هبة من الله تعالى ومنة على عباده ، ورحمة وتفضلا، فإنها ولا شك تكون جائزة وواقعة باختيار الله عز وجل وإرادته، إن شاء أوقعها وإن شاء أمسكها، فأفعاله تعالى اختيارية ، لأن من صفاته الإرادة التامة والقدرة التامة والعلم التام، و، يقول الشهر ستانى فى نهاية الإقدام في هذا الأمر(إن الله تعالى له الأمر والخلق والملك، ومن كان كذلك فله أن يتصرف فى عباده بالأمر والنهى، وله أن يختار منهم واحدا لتعريف أمره ونهيه، فيبلغ عنه إليهم ، فإن من له الخلق والإبداع، له الاختيار والاصطفاء (وربك يخلق ما يشاء ويختار" فلا استحالة فى هذه المراتب، ولا استحالة فى نفس الدعوى، ولا يضاهى استحالته دعوى الإلهية، بل هو من الجائزات العقلية)[1] فالأشاعرة يرون أن النبوة وكل ما يتعلق بها من اصطفاء ووحى ومعجزات هو من الجائزات فى حقه تعالى، ومن الجائز – عقلا – أن يرسل رسلا إلى الناس يبلغونهم أمره تعالى ونهيه، وهو تعالى قادر على أن يدل رسله على كلامه النفسى المتضمن للخبر والأمر والنهى بخلق ألفاظ وأصوات ورقوم أو غيرها من الدلالات، وقادر على خلق الخارق للعادة مقرونا بدعوى ذلك الشخص الرسالة، فليس شيء فى ذلك محالا فى ذاته[2] لأن إرسالهم ليس فيه إفساد لتكليف، ولا إبطال لمنحة، ولا إيجاب لقلب بعض الأدلة، ولا إخراج القديم عن قدمه، ولا قلب لبعض الحقائق، ولا إلحاق صفة نقص بالمرسل، جل ذكره[3].

وقد قرر التفتازانى أن البعثة لطف من الله تعالى ورحمة بعباده ، يحسن فعلها ولا يقبح تركها، كسائر الألطاف، قال [البعثة لطف من الله تعالى ورحمة للعالمين، لما فيها من حكم ومصالح لا تحصى، فالبعثة لطف من الله تعالى ورحمة، يحسن فعلها ولا يقبح تركها، على ما هو المذهب فى سائر الألطاف، ولا تبتنى على استحقاق المبعوث، واجتماع أسباب وشروط فيه، بل الله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته][4].

---

(1) نهاية و الإقدام – الشهر ستانى صـ٤٢١.
(2) الاقتصاد فى الاعتقاد صـ٩٥ .
(3) التمهيد – الباقلانى – صـ١١٢ .
(4) شرح المقاصد – جـ٢ صـ١٧٤.

قال المعتزلة بوجوب البعثه على الله تعالى وكان هذا حكما عقليا منهم بناء على قاعدتين فى مذهبهم :-

١- القول بالحسن والقبح العقليين . ٢- القول بوجوب فعل الصلاح والآصلح على الله تعالى لعبادة .

و يمكننا أن نفسرالوجوب الذى زعمه المعتزلة أنهم يعنون به أن الله تعالى يفعل الإرسال البتة ، ولا يجوزله أن يتركه، لأن تركه سفه وعبث عندهم لأنه ترك للطف وللأصلح، والسفه والعبث نقص، والنقص محال على الله تعالى عقلا، فترك الإرسال محال ، فأصبح الإرسال واجبا عليه، لأن تركه يلحق به النقص، كما أن معنى وجوبها على الله تعالى يمكن أن يفسر أيضا بما ذهب إليه المعتزلة (فى معنى الواجب ، بأنه ما يمدح فاعله على فعله ويذم على تركه، فالبعثة واجبة من هذا المعنى، لا أن هذا الوجوب يسلب عن الله تعالى الإرادة والاختيار، فالبعثة عندهم حسنة عقلا ، وبالتالى فهى واجبة بالنظر إلى وظيفة الرسول الذى يعرفنا المصالح التى بها تجتلب المنافع وتدفع المضار ، وعلى أساسها يحصل العبد على الثواب، ويبعد عن العقاب[1].

وقد جمع القاضى عبد الجبار كل حيثيات حكمهم وقولهم بوجوب البعثة فى النص الأتى فقال [والأصل فى هذا الباب أن نقول : إنه قد تقرر فى عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس، وثبت أيضا أن ما يدعو إلى الواجب ويصرف عن القبيح ، فإنه واجب لا محالة، وما يصرف عن الواجب ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة؛ إذا صح هذا ، وكنا نجوز أن يكون فى الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك، ولم يكن فى قوة العقل ما يعرف به ذلك، ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين ما لايكون كذلك، فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال كى لا يكون عائدا بالنقص على غرضه بالتكليف، وإذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولا مؤيدا بعلم معجز دال على صدقه، فلابد من أن يفعل ذلك، ولا يجوز له الإخلال به، ولهذه الجملة قال مشايخنا: إن البعثة متى حسنت وجبت، على معنى أنها متى لم تجب قبحت لا محالة، وأنها

---

(1)المغنى – القاضى عبد الجبار جـ١٥ صـ٢١ .

كالثواب فى هذا الباب، فهو أيضا مما لا ينفصل حسنه عن الوجوب، فهذا فضل](١). ومما لا ريب فيه أن هذا المذهب مرفوض، لأنه تعالى لا يجب عليه شيء، فهو سبحانه المشرع الذى لا مشرع فوقه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) " الانبياء :٢٣ والحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع.

"الفلاسفة وحقيقة النبوة"

أقر الفلاسفة بحاجة البشر إلى الرسالة، كما سبق تقريره، كما أقروا بثبوت المعجزات، ولكنهم فسروا حقيقة النبوة والمعجزات تفسيرا خرجوا به عما هو معلوم من الدين بالضرورة(٢).

أما بالنسبة لتقريرهم الاحتياج إلى النبى فيقول فيه ابن سينا ما ملخصه "لابد فى وجود الإنسان وبقائه من مشاركة، ولا تتم المشاركة إلا بمعاملة ... ولابد فى المعاملة من سنة وعدل، ولابد للسنة والعدل من سان ومعدل ... ولابد من أن يكون هذا إنسانا، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم فى ذلك فيختلفون، ويرى كل منهم ماله عدلا وما عليه ظلما.... فالحاجة إلى هذا الإنسان فى أن يبقى نوع الإنسان ويتحصل وجوده أشد من الحاجة إلى أشياء أخرى من المنافع التى لا ضرورة إليها فى البقاء، بل أكثر ما لها أنها تنفع فى البقاء، كإنبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجبين وتقعير الأخمص من القدمين، فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضى تلك المنافع، ولا تقتضى هذه التى هى أسها، ولا يكون المبدأ الأول والملائكة تعلم ذلك ولا تعلم هذا، ولا أن يكون ما يعلمه فى نظام الأمر الممكن وجوده الضرورى حصوله لتمهيد نظام الخير لا يوجد ، بل كيف يجوز أن لا يوجد؟! وما هو متعلق بوجوده ومبنى على وجوده موجود . فواجب إذن أن يوجد نبى، وواجب أن يكون إنسانا، وواجب أن يكون له خصوصية ليست لسائر الناس حتى يستشعر الناس فيه أمرا لا يوجد لهم فيتميز به عنهم"(٣).

وهكذا يقرر ابن سينا أن النبوة واجبة لحفظ نظام العالم والعناية به والحفاظ على الخير العام، ولابد من خصائص تتوافر فى "النبى" حتى يذعن الناس له ويصدقوه يقول التفتازانى "قال الفلاسفة: وهذا الإنسان هو

---

(1) شرح الأصول الخمسة صـ٥٦٤.
(2) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٣٤ .
(3) النجاة – ابن سينا – قسم الإلهيات صـ٣٠٤.

الذى يجتمع فيه خواص ثلاث هى: الاطلاع على المغيبات، وظهور خوارق العادات، ومشاهدة الملك مع سماع كلامه" وهم يرجعون هذه الخواص إلى ذات النبى وما يتمتع به من كمال فى قوته النفسانية أى الإنسانية والحيوانية المدركة والمحركة، ويفسرون الوحى ورؤية الملك على هذا الأساس بأنه اتصال بالعقل الفعال الذى هو العقل العاشر فى نظريتهم التى يسمونها نظرية العقول العشرة، أو نظرية الفيض والصدور، أو نظرية الوساطة.

أما بالنسبة للخاصة الأولى: وهى الاطلاع على المغيبات فيفسرونها بأن نفس النبى القدسية بصفاء جوهرها وشدة اتصالها بالمبادىء العالية التى هى عقول الأفلاك المنتقشة بصور الكائنات : ماضيها وحاضرها وآتيها ، وقلة التفاتها إلى الأمور الجانبة إلى الخسة السافلة تكون بحيث يحصل لها جميع ما يمكن للنوع دفعة أو قريبا من دفعة ، إذ لا بخل هناك ولا احتجاب، وإنما المانع هو إنجذاب القوابل إلى عالم الطبيعة، وانغماسها فى الشواغل عن عالم العقل"(١) .

هذا هو تفسيرهم لكيفية اطلاع النبى على عالم الغيب، وهو تفسير مبنى على نظرية العقول العشرة، يقول الفارابى فى هذا الشأن (ولا يمتنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال، فيقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية أو محاكياتها من المحسوسات"(٢).

وهناك مآخذ على هذا التفسير نجملها فيما يأتى:-

١- كلام الفلاسفة فيه تناقض إذ كيف تتجلى المجردات بصور الكائنات المادية؟

٢- هذه الخاصة مبنية على نظرية العقول العشرة، وهى نظرية خيالية ومنهارة من أساسها.

٣- ثم إنهم يجعلون النبى هو الذى يطلع على صور الكائنات المنتقشة فى عقول الأفلاك، والحقيقة أن الله تعالى هو الذى يطلع النبى على ما أراد أن يطلعه عليه من الأمور الغيبية، قال تعالى(عَالِمُ

---

(1) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٣٣
(2) المدينة الفاضلة الفارابى صـ٧٦ .

الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً.إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) (الجن٢٦:٢٧)

٤- آخر هذه المآخذ أن عقول الأفلاك على مذهبهم تعلم الحوادث الأرضية على وجه كلى، فكيف يطلع النبى على المغيبات الجزئية من عقول الأفلاك؟[١]

٥- **وأما الخاصة الثانية:** وهى ظهور خوارق العادات، وهى المعجزات ، فيقولون فى تفسيرها (إنه لا يبعد أن يختص بعض النفوس الإنسانية بقوة هى مبدأ لأفعال غريبة بسبب ما لها من الخصوصية الشخصية، أو بسبب آخر طارىء عليها من غير اكتساب أو حاصل لها بالاكتساب٢"

وبتطبيق ذلك على الأنبياء نجد أن نفس النبى تكون من القوة بحيث تطيعها هيولى العناصر فيحدث بتوجيه نفس النبى إليها رياح وزلازل وحرق وغرق وهلاك أشخاص ظالمة وخراب مدن فاسدة، وانفجار المياه من الأحجار، بل من الأصابع، وليس ذلك ببعيد، لأن علاقة النفس مع البدن إنما هى بالتدبير والتصرف، لا الحلول والانطباع، فيجوز أن يكون لبعض النفوس من القوة بحيث تتصرف فى أجسام أخرى غير بدنها، بل فى كلية العناصر حتى كأنها نفس لعالم العناصر)[٢].

ومن يتأمل هذا التفسير الفلسفى للمعجزات يرى أنهم يجعلونها من الأمور المكتسبة التى تستطيعها نفس النبى إذا بلغت من القوة هذه الدرجة بالاكتساب، فيجعلون النبى كالمنوم المغناطيسى أو الساحر الذى يفعل أمورا معتادة إذا عرف أسبابها، وأيضا هم يعترفون بأن مادة العناصر مطيعة لغير النبى فلا تكون هذه خاصة له، وأيضا هم يجعلون المعجزة من فعل النبى، ولكن المعجزة من فعل الله تعالى، وليس للنبى فيها إلا أنه طلب حصولها من الله تعالى[٣].

وأما الخاصة الثالثة: وهى مشاهدة النبى للملك مع سماع كلامه مع أن الملك من المجردات عندهم وليس من الأجسام فهم يشرحونها ويقربونها إلى الأذهان بقولهم: إن النائم ومن يجرى مجراه فى عدم استيلاء الحواس

---

(1) النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام .د/ محيي الدين الصافى صـ٣٢-٣٣ .
(2) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٣٣ - ١٣٤ شرح المواقف جـ صـ٢٥٣ - ٢٥٤ .
(3) النبوات والسمعيات /د: محيى الدين الصافى صـ٢٤ .

عليه، قد يشاهد صوراغريبة ويسمع أصواتا عجيبة، ليست بمعدومة صرفة ولا موجودة فى الخارج، بل موجودة فى قوته المتخيلة وحسه المشترك .... فلا يبعد أن يكون لبعض أفراد الإنسان نفس شريفة شديدة الاتصال بعالم العقل ويكون له مخيلة قوية جدا شديدة التلقى من عالم الغيب قليلة الانغماس فى عالم الحواس الظاهرى .... ويتصل ذلك الإنسان بعالم الغيب، وتتمثل العقول المجردة والنفوس السماوية لقوته المتخيلة أشباحا مصورة متخاطبة وتحدث فى سمعه كلاما مسموعا يحفظ ويتلى ويكون من قبل الله وملائكته لا من الإنسان، وهذا معنى الوحى عندهم ونزول الملك والكتاب[١].

ولا شك أن تفسير الفلاسفة للوحى بهذه الطريقة تفسير باطل، فإنهم جعلوا الوحى الذى يتلقاه الأنبياء من قبيل خيالات المرضى وأحلام النائمين وهذيان المحمومين ، وهذا يقدح فى الأنبياء ويرفع الثقة بهم، وفيما يتلقونه عن الله تعالى من قوانين وشرائع، ويفتح الباب على مصرعيه للطاعنين فى النبوة والأنبياء[٢] وهذا ما قرره صاحب المواقف فى نقده لهذة الخاصة عند الفلاسفة من أنهاتئول إلى الطعن فى الوحى والنبوة [٣] تلك هى رؤية الفلاسفة لحقيقة النبوة، وهى لا تخلو كما يذهب أكثر الباحثين – من التأثر برأى أجنبى، فالفارابى مثلا عندما قرر هذا التفسير وتلك الرؤية فى كتبه، وحلل كيفية حصول المعارف للنبى كان متأثرا برسالتى أرسطو فى الأحلام، وفى التنبؤ بواسطة النوم، فقد وافقه فى شرح طريقة الأحلام وعلاقتها بالنفس والمزاج ، ولكنه خالفه حين قرر إمكان اتصال الإنسان بالعالم العلوى بواسطة المخيلة[٤]

إن تخريج الفلاسفة للنبوة على هذا النحو ينزل بها عن درجتها السامية وعلو قدرها وعظم منزلتها، فهى اصطفاء واختيار من الله تعالى لمن يصنعهم على عينه ويعدهم لتحملها، وقد تحدث كثير من الباحثين المسلمين فى هذا الشأن، فها هو ابن تيمية يقول [إنهم – أى الفلاسفة- أرادوا تخريج خصائص الأنبياء، على أصول فلاسفة اليونان، الذين لم

---

(1) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٣٤ – وانظر : المواقف جـ٨ صـ٢٤٤ .
(2) النبوات والسمعيات صـ٢٥ .
(3) شرح المواقف جـ٨ صـ٢٤٤ – ٢٤٥.
(4) الفارابى – المدينة الفاضلة صـ٦٨:٧٤ – دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام (ترجمة د/ أبو ريدة) صـ١٤٢-١٤٣ ،.د/ابراهيم مدكور – فى الفلسفة الإسلامية جـ١ صـ١٤-١٨ .

يعرفوا النبوة، لذلك فإنهم يعرفون النبوة من جهة القدر المشترك بين بنى آدم وهو المنام... وهذه الخواص الثلاث التى جعلوها للأنبياء توجد فى غير الأنبياء الذين لا يكونون فى درجة النبوة، بل نجدها فيمن لا يصل إلى درجة الصالحين](١).

ويقول ابن القيم (للنبوة عند الفلاسفة ثلاث خصائص، من استكملها فهو نبى :

١- قوة الحدس ... ٢- قوة التخيل والتخييل .... ٣- قوة التأثير بالتصرف فى هيولى العالم... وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب.... والنبوة عند هؤلاء صنعة من الصنائع، بل من أشرف الصنائع ، كالسياسة، بل هى سياسة العامة ، وكثير منهم لا يرضى بها، ويقول : الفلسفة نبوة الخاصة، والنبوة : فلسفة العامة"(٢)

المبحث الثانى

"حاجة البشر إلى الرسالة"

إن النبوة تفضل من الله تعالى على عباده ، عم بها سائر الأمم والشعوب، كما صرح القرآن الكريم، قال تعالى")ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) (يونس:٤٧) ، تتجلى مهمته فى هداية أمته (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) (الرعد:٧) وقمة الهداية لتمثل فى قوله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (النحل:٣٦) ، وكان أنبياء الله تعالى إلى أممهم وشعوبهم كثيرين ، فقد بلغ عدد الأنبياء – على ما ذكر البغدادى فى أصول الدين "مائة واربعة وعشرون ألف نبى ، وكان عدد الرسل منهم (ثلاثة مائة وثلاثة عشر رسولا)(٣) ذكر القرآن بعضهم ولم يذكر البعض الآخر ، قال تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك" النساء:١٦٤.

---

(1) النبوات – ابن تيمية صـ١٦٨ – ١٦٩ .
(2) إغاثة اللهفان – ابن قيم الجوزية جـ٢ صـ١٩٢ – المكتبة القيمة ، وانظر المواقف جـ١ صـ٢٤٢ – ٢٤٥، شرح المقاصد جـ٢ صـ١٣٣ – ١٣٥
(3) أصول الدين – البغدادى – صـ١٥٧ .

ولقد كان الإنسان فى حاجة إلى تلك الرسالات ليتعرف على حقيقة نفسه؟ وحقيقة ما حوله وليعرف مبدأه ومصيره وعلاقته بالكون وعلاقة هذا الكون به، إنه فى حاجة إلى من يجيبه عن أسئلته التى تتعلق بعالم الغيب، ليقف على المعرفة الحقة اليقينية فيما يتعلق بعقيدته بالله تعالى وبالملائكة والجن والموت والدار الآخرة، ثم هو فى حاجة إلى من يضع له القوانين الأخلاقية والاقتصادية وينظم حياته الاجتماعية، بل إن تلك الرسالات الإلهية تبين للإنسان كيف يحقق هويته كخليفة عن الله تعالى فى هذه الأرض، إنها عقل النوع الإنسانى، وهى حجة الله تعالى على عباده.

وما أجمل قول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حين قال "بعثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته فى بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمها الله ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"(١).

وقد أجمل صاحب (طوالع الأنوار) أوجه حاجة الإنسان إلى الرسل وسماها (فوائد بعثة الرسل" على النحو الأتى:-

يقول"لبعثة الرسول فوائد لا تحصى":

منها : أن يقرر الحجة ، ويميط الشبهة ، ويرشد إلى ما يتوقف العقل فيه، كبعث الأموات ، وأحوال الجنة والنار.

ومنها: أن يبين حسن ما يتوقف العقل فيه، ويفصل ما حسنه إجمالا.

ومنها : أن يعين وظائف الطاعات والعبادات المذكورة للمعبود المتكررة لاستحفاظ التذكر وغيرها.

ومنها: أن يشرع قواعد العدل المقيم لحياة النوع ، ويعلم الصناعات الضرورية النافعة المكملة لأمر المعاش.

ومنها: أن يعلم منافع الأدوية ، ومضارها، وخصائص الكواكب وأحوالها التى لا يحصل العلم بها إلا بتجربة متطاولة ، لا تفى بها الأعمار.

وأيضا فالعقول متفاوتة والكامل نادر ، فلابد من معلم يعلمهم، ويرشدهم على وجه يناسب عقولهم"(٢).

---

(1) رسالة التوحيد صـ٩٦.
(2) طوالع الأنوار صـ٣٢٠ – ٣٢١.الامام البيضاوى / تحقيق ودراسة د/ محمد ربيع جوهرى / رسالة دكتوراه / كلية أصول الدين بالقاهرة

وقد ركز الشيخ محمد عبده فى هذه الفكرة، فكرة احتياج البشر إلى الرسالة على أن الإنسان مدنى بطبعه ويحتاج إلى ما ينظم له حياته ومجتمعه، فقال "وكما جاد الواهب الجواد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء، وأثر فى الوقاية من غوائل الشقاء، وأحفظ لنظام الاجتماع.... فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين..... يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى"[1].

إن فائدة الرسالات الإلهية تتمثل فى تقوية العقل وتأييده فيما يستقل بمعرفته، بسبب ما أعطاه الله تعالى من فطرة سليمة ووسائل إدراك، أما الأمور التى لا سبيل له إلى إدراكها كالسمعيات وسائر الغيبيات فالرسالة الإلهية توقف الإنسان على حقيقتها، كما تبعث الرسالات الإلهية الطمأنينة والسكينة فى الإنسان وتقوى عنده دوافع الخير وتضعف دوافع الشر، والرسل يعرفون العقل البشرى حسن الأشياء وقبحها كصفتين ملازمتين لتلك الأشياء، أو ما يحسن منها تارة ويقبح أخرى، كما توقف الإنسان بالتفصيل على ثواب الطائع وعقاب العاصى تربية له بمنهج الترغيب والترهيب[2] إن الرسالة كما هى ضرورية لصلاح النوع الإنسانى وصلاح الحياة، فهى ضرورية أيضا لصلاح الإنسان كفرد لتربيته نفسياوبدنيا، ولا يتحقق ذلك إلا بمنهج يلائم طبيعته ويتسق مع فطرته، منهج يربطه بربه ويزكى نفسه، ويطهر قلبه، ويقوم خلقه، منهج يوضح الفرائض والقربات لله عز وجل، ويبين الحسن والقبيح، ويميز بين الخير والشر، والمنهج الذى يحقق ذلك إنما هو منهج الأنبياء الموحى به من قبل الله تعالى، وقد قال الإمام الرازى فى ذلك "اعلم أن أكثر الخلق ناقصون، ولابد لهم من مكمل يكملهم، ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم السلام"[3].

---

(1) رسالة التوحيد ٩٥-٩٦.
(2) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٢٨ .
(3) نقلا عن : دلائل التوجيد - القاسمى / صـ١٤٢ .

وفى النهاية يمكننا إجمال حاجة البشر إلى الرسل وفوائد البعثة فى الأمور الآتية:-

١) بيان حقيقة الأمور الغيبية التى لا مجال للعقل والحواس فيها.
٢) بيان علاقة الإنسان بالله تعالى بوضع طرق عبادته.
٣) وضع قوانين وتشريعات تصلح أمور المعاش والمعاد.
٤) بيان ما يتصل بالأخلاق الفاضلة ونحوها من المصالح.
٥) تفسير مجرى التاريخ تفسيرا دينيا، وبيان المبادىء التى يخضع لها تطور المجتمعات البشرية .
٦) بيان ماهية المجتمع المثالى والدولة المثالية، وقيمة كل منهما ، من خلال تأسيس نظام الحكم وأشكاله على أساس دينى مراد الله عز وجل.
٧) بيان أصول العلوم والصنائع، مع ترك تفصيلاتها الجزئية تتطور بتطور الأزمان والعصور.

المبحث الثالث

"عقيدة الإيمان بالرسل"

يمثل الإيمان بالرسل ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية وأصلا عظيما من أصول الإسلام، وقد بين رسول الله ﷺ تلك الأركان وهذه الأصول فى حديث جبريل عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حينما سئل عن ما هية الإيمان فقال (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[1].

وقد أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الرسل والأنبياء، من أولهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ قال تعالى(قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:١٣٦) وقال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ

---

(1) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الإيمان والإسلام - جـ١ صـ٣٦ .

السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة:١٧٧). وقال تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة:٢٨٥) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) (النساء:١٥٠) القرآن والسنة إذن قد قررا وجوب الإيمان بجميع الرسل والرسالات السماوية، كما قررا عدم جواز التفريق بين رسالة وأخرى، أو بين رسول وآخر من أولهم آدم إلى خاتمهم محمدﷺ.

فمن أنكر النبوة أو الرسالة عامة، أو أنكر نبوة نبى من الأنبياء الذين نص الوحى عليهم فقد كفر، لأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض، كالكفر بهم كليهم، لأن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة، ووظيفتهم فى إرشاد المكلفين وتبليغ رسالته وشرعه واحدة[1] وينقسم الإيمان بالأنبياء إلى إيمان إجمالى، وإيمان تفصيلى.

فيجب الإيمان إجمالا بأن الله تعالى أرسل رسلا وأنبياء إلى عباده مبشرين ومنذرين ليقيم عليهم الحجة، كما قال تعالى (رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (النساء:١٦٥) ويقول تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (النحل:٣٦). وقال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر:٢٤)

ويجب الإيمان تفصيلا بمن ورد ذكرهم فى القرآن تفصيلا وعدتهم خمسة وعشرون نبيا، وقد نظموا فى قول بعضهم:-

حتم على كل ذى التكليف معرفة * بأنبياء على التفصيل قد علموا**

فى تلك حجتنا منهم ثمانية * من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو**

(1) الوحى المحمدى صـ١٧٩ وما بعدها.

إدريس هود شعيب صالح وكذا * ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا**

فهؤلاء المذكورون فى القرآن المتفق على نبوتهم .... ومعنى كون الإيمان واجبا بهم تفصيلا أنه لو عرض عليه واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته كفر[1]. وتتضمن عقيدة الإيمان بالأنبياء إجمالا وتفصيلا وجوب الإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، وبعموم رسالته إلى العالمين نص على ذلك الكتاب والسنة وأجمعت عليه الامة،قال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) (الأحزاب:٤٠). قال الألوسى فى تفسيره (والخاتم اسم آله لما يختم به، كالطابع لما يطبع به، فمعنى خاتم النبيين الذى ختم النبيون به، ومآله آخر النبيين"[2] وقال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (المائدة:٣) . روى الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما – فى هذه الآية قال (أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا)[3] وجاء فى شرح البيجورى على جوهرة التوحيد (قوله تعالى (وخاتم النبيين) يلزم منه ختم المرسلين، لأنه يلزم من ختم الأعم ختم الأخص من غير عكس)[4].

وقد نصت السنة أيضا على أن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، روى مسلم بسنده عن أبى هريرة– رضى الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟! قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[5].

وكذلك روى مسلم بسنده أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا

(1) شرح البيجورى على جوهرة التوحيد – الشيخ إبراهيم البيجورى – صـ٥٤ – ٥٥ طبعة خاصة بالمعاهد الأزهرية ١٩٧٩.
(2) روح المعانى– الألوسى– جـ٨ صـ٣٤ – دار الفكر – بيروت.
(3) تفسير الطبرى– جـ٩ صـ٥١٨ .
(4) شرح البيجورى على الجوهرة صـ١٦٠
(5) صحيح مسلم – كتائب الفضائل – باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين جـ٤صـ١٧٩ .

نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[١]، وبهذا أجمع المسلمون على عقيدة ختم النبوة ببنوته ﷺ وعموم رسالته، حتى أصبحت هذه العقيدة أمراً معلوما من الدين بالضرورة يكفر من أنكرها.

قال تعالى(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (سبأ:٢٨). وقال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَاسُ إِنِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) (الأعراف:١٥٨)

جاء فى شرح العقائد النسفية (وإذا ثبتت نبوته ﷺ، وقد دل كلامه وكلام الله تعالى المنزل عليه على أنه خاتم النبيين ، وأنه المبعوث إلى كافة الناس، بل إلى الجن والإنس ، ثبت أنه آخر الأنبياء وأن نبوته لا تختص بالعرب... فإن قيل: قد روى فى الحديث "نزول عيسى عليه السلام" بعده، قلنا: نعم لكنه يتابع محمدا ﷺ، لأن شريعته قد نسخت ، فلا يكون إليه وحى، ولا نصب أحكام، بل يكون خليفة رسول الله ﷺ[٢]

(1) صحيح مسلم- كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس جـ١ صـ١٣٤.
(2) شرح العقائد النسفية ص١٢٥-١٢٦

الفصل الثانى

"المنكرون للنبوة وشبههم"

تعددت طوائف المنكرين للنبوة وقسمهم العلماء إلى أقسام عديدة ، فيقول الشهرستانى (المنكرون للنبوة منهم من قال باستحالتها ولا اعتداد بهم ، ومنهم من قال بعدم الاحتياج إليها كالبراهمة ... ومنهم من لزم ذلك من عقائدهم كالفلاسفة ... ومنهم من لاح ذلك من أفعاله وأقواله كالمصرين على الخلاعة وعدم المبالاة)[١] بينما نجد الماوردى قد حددهم فى ثلاث طوائف هم : الدهرية و الفلاسفة و البراهمة[٢] ، وقد أوصلهم البغدادى إلى إحدى عشرة طائفة، وذكر منهم اليهود والنصارى لإنكارهم نبوة محمد ﷺ "٣" ، ويمكننى أن أضيف إلى هؤلاء جميعا أصحاب الاتجاه الماركسى فى تفسير الإسلام ، حيث فسروا النبوة تفسيرا خرجوا به عن حقيقتها الشرعية .

وسوف يكون التركيز فى هذا الفصل على الطوائف الرئيسة فى إنكار النبوة، وهى كالاتى :-

١- الدهرية. ٢- البراهمة . ٣- اليهود .

٤- النصارى . ٥- الماركسيون ورؤيتهم المادية للنبوة .

(1) شرح المقاصد / م٢ صـ ١٢٩
(2) أعلام النبوه ص ١٣
(٣) اصول الدين - البغدادى ص ١٥٨

المبحث الأول

"الدهرية"

هذه الطائفة تنكر الغيبيات والروحانيات، ولا يقرون إلا بالمحسوس وينكرون المعقول، وقد أشار الجاحظ فى كتابه (الحيوان) إلى الدهريين كاشفا عن مقالتهم وأس مذهبهم الذى هو الحس وحده، لأن الدهرى لا يقر إلا بالمحسوسات والعادات[١] وبعبارة أخرى (لا يقر، إلا بما أوجده العيان، وما يجرى مجرى العيان[٢].

ويبين الجاحظ بجلاء ووضوح أن المذهب الدهرى أساسه نفى الألوهية والنبوة والجزاء وشرائع الدين والأخلاق، حيث يقول (الدهرى ينفى الربوبية ، ويحيل الأمر والنهى، وينكر جواز الرسالة، ويجعل (الطينة) قديمة، ويجحد الثواب والعقاب، ولا يعرف الحلال والحرام، ولا يقر بأن فى جميع العالم برهانا يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق .... هذا الدهرى ليس يرى أن فى الأرض دينا أو نحلة أو شريعة أو ملة، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه، ولا يتوقع العقاب على الإساءة، ولا يترجى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده، والحق فى حكمه: أنه والبهيمة سيان، وأنه والسبع سيان، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه، وليس الحق عنده إلا ما وافق هواه ، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك، وعلى اللذة والألم ..... فهذا الدهرى لا يخاف إن ترك الطعن على جميع الكتب عقابا ولا لائمة، ولا عذابا دائما ولا منقطعا، ولا يرجو إن ذمها ونصب لها ثوابا فى عاجل أو آجل)[٣].

وذكر اليعقوبى فى تاريخه نفس تلك الاسس التى قام عليها هذا المذهب الدهرى وانهم سموا (دهرية) لزعمهم ان الانسان لم يزل ولن يزول ، وان الدهر دائم لا اول له ولا اخر [٤]. وقد اهتم صاحب كتاب (البدء والتاريخ) وهو أبو زيد بن سهل البلخى أو هو المطهر بن طاهر المقدسى على خلاف بين المحققين فى ذلك بهذه الطائفة، ورد عليهم أكثر

---

(1) الحيوان جـ٦ – صـ٢٦ – الجاحظ / ط ثانية – الحلبى صـ١٩٦٦

(2) الحيوان جـ٤ – صـ٩٠

(3) تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر من وهب بن واضح – جـ١ صـ١٤٩ – ط بيروت – سنة ١٩٦٠.

(4) تاريخ اليعقوبى – أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر بن وهب بن واضح – جـ١ صـ١٤٩ – ط بيروت – سنة ١٩٦٠.

من مرة، وأطلق عليهم لقب (المعطلة)، حيث قال (وأصل التعطيل) : إنكار الخالق والرسول ، والثواب والعقاب، اعتقادا لا إقرارا منهم، وقد احتاروا فى دفع عادية الناس عنهم، فأثبتوا الثواب والعقاب)[١].

ويذكر لهم أسماء أخرى عند الإسلاميين، لا تغير من أصل عقيدتهم السالفة فيقول (ذكر المعطلة، ولهم أسماء أخرى، يقال لهم (الملاحدة) و (الدهرية) و (الزنادقة) و(المهملة)[٢].

كما يقرن البغدادى بين اصول واسس كلا من المذهب الباطنى والمذهب الدهرى ويبين ان كليهما بعضهم من بعض " ١"

ونجد الشهر ستانى يتحدث عن هذه الطائفة ، ولكنه يستشهد بآية قرآنية تتحدث عن معتقدهم فيقول [واعلم أن العرب أصناف شتى : فمنهم معطلة ومنهم محصلة، فالمعطلة وهم أصناف، فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد قائلا (وَقالوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُونَ) (الجاثية:٢٤) ، إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى، وقصر للحياة والموت على تركيبها وتحللها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر (وَقالوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُونَ) (الجاثية:٢٤). وفى الحقيقة أنه لا حاجة ولا جدوى من مناقشة هؤلاء الماديين فى قضية النبوة، حيث إنهم ينكرون أصلها ومصدرها وهى (الألوهية)، فمناقشتهم ليست بموضوعنا وإنما هى داخلة فى موضوع إثبات الألوهية وعالم الغيب.

---

(1) البدء والتاريخ// جـ٤ / فصل ١٢ – صـ٥.

(2) نفسه جـ٤ – فصل ١٢ – صـ٥.

المبحث الثانى

"البراهمة وإرسال الرسل"

لقد قسم العلماء البراهمة الى قسمين :

القسم الاول : من ينكر النبوات اصلا وراسا ، ويقول باستحالتها مع اقرارهم بالتوحيد وقولهم بحدوث العالم [١]

القسم الثانى : من لم ينكر اصل النبوة ومبدائها ، ولكنه لم يعترف الا بنبوة ادم او ابراهيم على خلاف فى ذلك [٢]

"شبه البراهمة فى إنكار النبوة"

اعتمد البراهمة على عدة شبه واحتجوا بها فى إنكارهم للنبوة، وسأسوقها – إن شاء الله تعالى– واحدة واحدة وأقوم بالرد عليها.

الشبهة الأولى:-

تبنى هذه الشبهة عندهم على مبدأ القول بالتحسين والتقبيح العقليين ، فالحسن ما حسنه العقل فيجب عمله، والقبيح ما قبحه العقل، فيجب تركه، وما يتوقف فيه العقل ولا يجزم بحسنه أو قبحه، فهو خاضع للظروف والملابسات والحاجة تقدر بقدرها.

وعلى ذلك فالعقل مكتف بذاته، دونما حاجة إلى مصدر آخر للمعرفة ، فالمعرفة مصدرها واحد وهو العقل ، ففيه الكفاية لكل أنواع المعارف.

جاء فى شرح المواقف "قالت البراهمة: فى العقل مندوحة عن البعثة، إذ هو كاف فى معرفة التكاليف، واحتجوا بأن ما حكم العقل بحسنه من الأفعال بفعل، وما حكم بقبحه يترك، وما لم يحكم فيه بحسن ولا قبح يفعل عند الحاجة، ويترك عند عدمها"[٣].

وهكذا مجد البراهمة العقل، وأعطوه ثقة لا حدود لها دونما النظر إلى التفاوت الطبيعى بين العقول بتفاوت الأشخاص والأزمان والأماكن ،

---

(1) وقد قرر هذا كل من :الشهرستانى فى الملل والنحل ج٣ ص ٩٥-٩٦، نهاية الاقدام ص٤١٤ – الامام الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص٩٥ – ابن حزم فى الفصل ج١ ص٢٩ –الماوردى : أعلام النبوة ص ١٦.

(2) وقد قرر هذا الباقلانى : التمهيد ص ٩٦.

(3) شرح المواقف جـ٨ صـ٢٥٨.

ولا شك أن هذا يؤدى إلى نسبية المعرفة ونسبية الأحكام وتلك سفسطة مرفوضة.

"الرد عليهم فى هذه الشبهة"

أفاض العلماء فى الرد على البراهمة فى قوليم بالتحسين والتقبيح العقليين ، وأقاموا عليهم الحجج والبراهين ببيان حدود العقل ومجالاته، وعدم وقوفه حجر عثرة تجاه هدى الأنبياء والمرسلين.

ويرد إمام الحرمين عليهم أولا ببيان أن الرسالة مؤكدة للمعقول، وهى من باب تضافر الأدلة على مدلول واحد ، وهى لطف من الله تعالى ومعونة ، فكيف يدعون عبثية الإرسال وخلوه عن حكمة، يقول فى ذلك "لا يمتنع تأكيد أدلة العقول بما جاء به الرسول، وهذا بمثابة قيام أدلة عقلية على مدلول واحد ، وإن كان الاكتفاء يقع بدلالة واحدة فلا تجعل ما عداها عبثا، ثم لا يمتنع أن يقع فى معلوم الله تعالى أن الرسول إذا ابتعث كان ابتعاثه لطفا فى الأحكام العقلية، وينتدب العقلاء لها عند إرسال الرسول، فإذا لم يمتنع ما قلناه بطل ادعاؤهم بخلو الابتعاث عن غرض)[١].

فمما قد يتوصل إليه العقل ويعضده الرسول معرفة وجود الله تعالى ووحدانيته وصفات كما له، ومما قد لا يستقل العقل بمعرفته فيدله عليه الرسول كالسمعيات، وما عدا ذلك فمهمة الرسول بيانه وايضاحه إذا كان حسنا فيجب عمله، وإذا كان قبيحا فيجب تركه. ويواصل إمام الحرمين رده ويبين موقع الرسالة بالنسبة إلى العقل، فالعقل لا يعين على وجه التحديد والدقة ما هو حسن وما هو قبيح، كالمريض الذى يطلب على الجملة ما يشفيه فيحدد له الطبيب نصا ما فيه هذا الشفاء،

ويفند الغزالى هذه الشبهة فيرميها بالضعف ، ويبين دور العقل بأنه لا يستغل إلا بالفهم إذا عرف، والرسول يخبر بما لا يمكن للعقل دركه، والله يؤيد الرسول بالمعجزة والقرائن الدالة على صدقه فى بلاغه عن الله تعالى يقول [أما هذه الشبهة فضعيفة، فإن النبى ﷺ يرد مخبرا بما لا تستقل العقول بمعرفته ولكن تشتغل بفهمه إذا عرف ، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ، ولا يفرق بين المشقى والمسعد] كما لا يستقل بدرك خواص الأدوية والعقاقير، ولكنه إذا عرف فهم وصدق وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك ويقصد

---

(1) الإرشاد صـ٣٠٣.

المسعد، كما ينتفع بقول الطبيب فى معرفة الداء والدواء، وكما يعرف صدق الطبيب بقرائن الأحوال وأمور أخر، فكذلك يستدل على صدق الرسول ﷺ بمعجزات وقرائن حالات، فلا فرق)[١].

وينقد الباقلانى – فى التمهيد – هذا الاتجاه البراهمى بأن العقل ليس طريقا للإيجاب ولا الحظر ولا للإباحة وأن طريق ذلك إنما هو السمع عن طريق الرسول الذى يبين الحلال والحرام والطاعات والمعاصى ، وبذلك يبطل قولهم بان جميع ما يحتاجه اليه العباد من الهداية الى سبل الرشاد ومواطن المصالح مدرج من ناحية العقول .

يقول فى ذلك [يقال لهم: ما أنكرتم من أنه لا سبيل من ناحية العقل إلى إيجاب شىء، ولا إلى حظره ولا إلى إباحته، وأن ذلك لا يثبت فى أحكام الأشياء إلا من جهة السمع..... وإذا كان ذلك كذلك، فلابد من سمع يأتى على لسان رسول بفعل قرر السمع وجوبه؛ فعلم أن العلم بالقرب وحصول الثواب عليها، ولا يجوز أن يثبت عقلا، فقد بطل قولكم: إن جميع ما يحتاج إليه العباد من المراشد والمصالح مدرك من ناحية العقول][٢].

وبعد هذه الردود القوية الرصينة من علماء الكلام ، أود أن أشير فى كلمة موجزة- إلى حدود العقل البشرى ومنتهى فضائه البحثى وإلى طبيعة العلاقة بينه وبين الشرع الذى يحمله الأنبياء إلى العالمين، وعلى قمة هذا الشرع ورأس أمره وذروة سنامه وعموده هو شرع نبينا محمد ﷺ إن العقل البشرى قاصر عن تفسير القوة الأعظم التى يشعر بها الإنسان شعورا عاما يشترك فيه الجميع، لذلك لابد من وحى إلهى لتصحيح وتفسير العقيدة فى الله تعالى وصفاته وكمالاته، وكذلك تصحيح الصلة بينه وبين عباده ، فالبشر – كما يقول الشيخ محمد عبده (وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم ، وانحرفت بها عن مسلك السعادة ، فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف عن الله ما يجب أن يعرف....)[٣].

وهذا ما قرره ابن خلدون، وهو أن العقل مع كونه مصدرا يقينيا من مصادر المعرفة ، فهو فى الوقت ذاته يستحيل عليه أن يقف على حقيقة ما وراء الطبيعة، [العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب

(1) الاقتصاد صـ٩٦.
(2) التمهيد – صـ٩٩.
(3) رسالة التوحيد صـ٧٢ – ٧٣.

فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع فى محال][١].

ولقد حاول كثير من الفلاسفة الإلهيين قديما وحديثا الوصول إلى الهداية بطريق العقل فتضاربت أراؤهم وأفكارهم بالاعتماد على مجرد العقل وحده، فتصور أفلاطون للألوهية يباين تصور أرسطو، وتصور أرسطو لا يتفق والذى أتى بعده وسارت الأمور على هذا النسق كلما جاءت أمة لعنت أختها، وكلما نشأت مدرسة حملت على سابقتها، بل حملت على كل من سبقها][٢].

وعندما حاول الفلاسفة قديما وحديثا الاكتفاء بعقولهم وعلومهم وذكائهم والاستغناء عن هدى الأنبياء والمرسلين وغرتهم كل تلك المعطيات فخاضوا فى الإلهيات ، وفى موضوع الذات والصفات والخلق والإبداع ، فجاءوا بالسخيف المرذول والتناقص والتخمينات، فهى كما يقول العلماء: ظلمات فوق ظلمات[٣].

يتضح لنا مما تقدم أن للعقل حدودا لا يصح للعاقل أن يتخطاها بعقله ، فإذا ما أراد الإنسان أن يدرك ما وراء هذه الحدود ، فإنه يحتاج إلى وسيلة أخرى تصحح له أخطاءه، فالاكتفاء بالنقل وحده يضيق دائرة المعرفة الإنسانية، فضلا عن أنه قد يتردى فى الخطأ دون أن يجد من يهديه إلى الحقيقة.

وقد حدد الغزالى أسباب خطأ العقل فيما يأتى:-

١- نقصان العقل في ذاته كعقل الصبى.
٢- الإفراط في الشهوات وارتكاب الرذائل الأخلاقية
٣- عدم التوجه إلى الحق والانشغال عنه بأمور أخرى.
٤- العادات والتقاليد والتعصب للآراء والمذاهب والجماعات.
٥- عدم التبصر في تركيب الأدلة الموصلة إلى الحقيقة.

(1) مقدمة ابن خلدون صـ٤٦٠.
(2) الإسلام والعقل :د/ عبد الحليم محمود صـ٤٥.
(3) النبوة والأنبياء / أبو الحسن النووى صـ٢٨ – ٢٩.

ثم يعقب الغزالى قائلا(فهذه هى الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور، وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق)[١].

ما هى إذن حقيقة العلاقة بين العقل والشرع؟

إن هذه الحقيقة تتمثل في (أنه أى الشرع: نزل هاديا للعقل في جميع الأمور التى لو ترك العقل وشأنه فيها ضل السبيل وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هى:-

العقائد والمبادىء الأخلاقية إجمالا وتفصيلا، والتشريع في قواعده العامة وفى بعض تفصيلاته، أما الطبيعة والكون فقد تركهما الله للإنسان بدرسها حتى يكتشف السنن الكونية، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء)[٢]

ويقرر الغزالى أن الشرع هاد للعقل ومصحح له، وأنهما متكاملان لا يجدى أحدهما بدون الآخر، فيقول فى نص طويل مؤكدا على الحاجة إلى كل منهما ، وعلى أساسية العقل للشرع فى إدراك الإنسان .

(اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغنى أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس .

قال : والشرع عقل من خارج، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان بل متحدان، ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر فى غير موضع من القرآن.... ولكون العقل شرعا من داخل ، قال فى وصف العقل (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)(الروم: من الآية٣٠). فسمى العقل دينا، ولكونهما متحدين، قال ")الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) (النور:٣٥). أى نور العقل ونور الشرع، ثم قال (يهدي الله لنوره من يشاء)(النور: من الآية٣٥) فجعلهما نورا واحدا.... فالشرع إذا فقد العقل عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد

(1) الإحياء – الغزالى صـ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، مطابع الشعب.
(2) الإسلام والعقل :د/ عبد الحليم محمود . صـ٣٠ .

الشعاع، قال: واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها، نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطى الجميل وحسن استعمال العدالة وملازمة العفة ونحو ذلك، من غير أن يعرف ذلك فى شىء شىء.... والشرع يعرف كليات الأشياء، ويبين ما الذى يجب أن يعتقد فى شىء شىء، وما الذى هو معد له فى شىء شىء، ولا يعرفنا العقل مثلا أن لحم الخنزير والدم والخمر محرم، وأنه يجب أن يتحاشى من تناول الطعام فى وقت معلوم، وأن لا تنكح ذوات المحارم، وأن لا تجامع المرأة فى حال الحيض ، فإن أشباه ذلك لا سبيل إليها إلا بالشرع، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدال على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل[١].

فالعقل والشرع إذن كلاهما من الله تعالى، وكلاهما يهدف لهداية البشر، ومن هنا فالعلاقة بينهما علاقة وثيقة، والارتباط بينهما ارتباط لزوم ، فوظيفة العقل هى أن يتلقى عن الرسل شرع الله ويعقل هذا الشرع، لا أن يشرع ويبتدع من تلقاء نفسه، فلا يشرع للإنسان إلا خالق الإنسان (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:١٤).

"الشبهة الثانية"

وهذه الشبهة فى الحقيقة موجهة؟ إلى الوحى الذى هو الأساس الأول الذى تبنى عليه النبوة والرسالة، إنه المتبع الأول لعامة الإخبارات الغيبية والعقيدة والشريعة، وهو الفيصل الوحيد بين الإنسان الذى يفكر من عنده، ويشرع بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذى يبلغ عن ربه، لذلك قيل: إن التخلى عن الوحى تقويض للدين[٢]

ويصور لنا الشهرستانى هذه الشبهة فيقول [إذا كان النبى مبلغا عن الله تعالى، فلابد وأن يسمع أمره وكلامه أولا ثم يبلغ عنه أو يسمع منه، فبم عرف النبى بأن المتكلم هو الله تعالى أو بم عرف أن المتوسط ملك يوحى إليه، وبم عرف ذلك الملك أن الرب هو الآمر المتكلم[٣]. أو على حد تعبير صاحب المقاصد [البعثة تتوقف على علم البعوث بأن الباعث له

(1) وانظر أيضا الاقتضاء فى الاعتقاد الغزالى صـ٤٠٣.
(2) د/ محمد سعيد رمضان البوطى – كبرى اليقينيات الكونية صـ١٩٩ – ٢٠٠، د/ محمد لطفى جمعة/ ثورة الإسلام صـ٥٠.
(3) نهاية الإقدام صـ٤١٩.

هو الله تعالى ولا سبيل إلى ذلك][1] [إذ لعله من إلقاء الجن فإنكم أجمعتم على وجوده وعلى جواز إلقائه الكلام إلى النبى، ثم إن ملاك الوحى الذى يلقى إلى النبى الوحى، إن كان جسمانيا وجب أن يكون مرئيا لكل من حضر حال الإلقاء، وليس الأمر كذلك كما اعترفتم به، وإن كان روحانيا كان إلقاء الوحى بطريق التكليم منه مستحيلا، حيث لا يتصور للروحانيات كلام][2].

وقد أفاض الآمدى فى الرد على هذه الشبهة فى غاية المرام، فقال [أما ما أشاروا إليه من تعذر علمه بمرسله فبعيد ، إذ لا مانع من أن يعلمه المرسل له أنه هو الله تعالى، وذلك بأن يجعل له على ذلك آيات ودلائل ومعجزات ، بحيث تتقاصر عنها قوى سائر الحيوانات المخلوقات، أو بأن يكون ما أنزل إليه وألقى عليه، يتضمن الإخبار عن الغائبات والأمور الخفيات التى لا يمكن معرفتها إلا لخالق البريات، أو بأن يخلق له العلم الضرورى بذلك، إن الله على كل شىء قدير، وليس المطلوب لهذا الشخص من قبل الله بمستحيل، ولا نزول الوحى إليه مع الأمين جبريل، فإنه غير بعيد أن تشمله العناية من المبدأ الأول بتكميل فطرته وتصفية جوهر نفسه، وتنقيته، بحيث يتهيأ لقبول هذه الأسرار، ويستعد لدرك هذه الأنوار، فيرى ملائكة الله على صور مختلفة ، ويسمع وحيها وحده دون غيره من الحاضرين، ويختص به دونهم أجمعين، إن الله تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (الحج:٧٥)][3].

وينفى الباقلانى فى التمهيد نفيا قاطعا أن يحمل الله رسالاته جهالا به ، غير عالمين بشرائط النبوة، وحقيقتها أو مقدماتها ، فيقول [وليس يجوز أن يحمل الله الرسالة لبعض أنبيائه، وهو مع ذلك ممن لم يتقدم علمه بأن أحدا من المخلوقين لا يستطيع الإخبار عن الغيوب والإصابة فيها، ولا يقدر على إبداع الأجسام وإحياء الموات وخرق العادات، بل لا يرسل إلا أكمل الخلق علما به ومعرفة له؛ وإذا كان ذلك كذلك سقط ما توهمتم][4].

وأيضا إنما يتبين الرسول من البشر أن المنزل عليه بالرسالة ملك من عند ربه بأن يكون الخطاب الذى أداه إليه متضمنا لإخباره عن الغيوب، أو بأن

---

(1) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٢٩.
(2) شرح المواقف جـ١ صـ٢٥٥ – غاية المرام صـ٣٢٠.
(3) غاية المرام فى علم الكلام – الأودى صـ٣٢٤ – ٣٢٥.
(4) التمهيد صـ١٠١.

يظهر معه من الآيات مثل الذى ظهر على أيدى الرسل عند الأداء إلى أمثالهم من ولد آدم، فيعلم عند ذلك أن من ظهرت هذه الأمور على يده فليس بساحر ولا شيطان ولا متمثل من الأرواح، وكل هذا يبطل ما توهموه][1] وكذلك هناك قرينة تحقق له العلم بأن المخاطب له إنما هو ملك، وليس غيره، قال [وكذلك أيضا إنما يتبين الرسول من البشر أن المنزل عليه بالرسالة ملك من عند ربه بأن يكون الخطاب الذى أداه إليه متضمنا لإخباره عن الغيوب ، أو بأن يظهر معه من الآيات مثل الذى ظهر على أيدى الرسل عند الأداء إلى أمثالهم من ولد آدم، فيعلم عند ذلك أن من ظهرت هذه الأمور على يده فليس بساحر ولا شيطان ولا متمثل من الأرواح، وكل هذا يبطل ما توهمتموه][2] . وكذلك أيضا الكتاب الذى يأتى به الرسول لابد من دليل يدل على أنه من عند الله يقول فى ذلك [فأما الكتاب الساقط على يد الرسول، فلابد من أن يكون معه آية تظهر على يد ملك سواه يؤديه، أو بأن ينطق الله الكتاب ويحييه حتى يؤدى من نفسه، ويخبر بمتضمنه ويخرق العادة بما يظهر منه ، فلا تعلق لهم فى ذلك][3].

وفى نهاية الإقدام يؤكد الشهرستانى على أن اقتران المعجزة بدعوى النبى نازل منزلة التصديق بالقول، وذلك أنه متى عرف من سنة الله تعالى أنه لا يظهر أمرا خارقا للعادة على يدى من يدعى الرسالة عند وقت التحدى والاستدعاء إلا لتصديقه فيما يجرى به واجتماع هذه الأركان انتهض قرينة قطعية دالة على صدق المدعى، فكأن المعجزة بالفعل كالتصديق شفاها بالقول[4].

"الشبهة الثالثة"

الشبهة الثالثة: وهذه الشبهة موجهة إلى (التكليف) إما من حيث المبدأ ، أو من حيث مضمونه، والتكليف هو: "العمدة فى باب البعثة"[5] ويمثل (لازمها) الذى لم تخل منه رسالة إلهية، ولا يمكن أن ينفك عنها بحال من الأحوال.

---

(1) نفس المصدر والصفحة.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفسه والصفحة.
(4) نهاية الإقدام صـ٤٢١.
(5) شرح المقاصد جـ٢ صـ١٢٩.

وقد أورد صاحب المواقف الشبه الموجهة إلى التكليف بطريقة وافية مستفيضة، يمكن أن ألخصها فيما يأتى (قالوا: البعثة لا تخلو عن التكليف، لأنه فائدتها باتفاق، والتكليف ممتنع لوجوه:-

١) كيف يكون التكليف مع الجبر ، لما كانت الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى، ومعلومة من قبل: إما الوقوع أو اللاوقوع فالتكليف حينئذ قبيح.

٢) التكليف إضرار بالعبد لما يلزمه من التعب بالفعل، أو العقاب بالترك، والإضرار قبيح، والله منزه عنه .

٣) التكليف إما لا لغرض ، وهو عبث، أو لغرض يعود إلى الله تعالى وهو منزه عن الأغراض، أو لغرض يعود إلى العبد وهو إما إضرار، وهو منتف إجماعا، أو نفع ، والتكليف إضرار بالعقاب خاصة للكفار والعصاة.

٤) التكليف إما أن يكون مع وجود الفعل، ولا فائدة فيه لوجوبه، وإما قبل الفعل وأنه تكليف بما لا يطاق، لأن الفعل قبل الفعل محال، وأما التكليف بعد الفعل فهو تكليف بتحصيل الحاصل[1].

٥) وهو لبعض الصوفية من أهل الإباحة، التكليف بالأفعال الشاقة يشغل الباطن عن التفكر فى الله تعالى.

وقد أجاب صاحب المواقف عن كل هذه الحجج الموجهة ضد التكاليف، فقال (وجواب الأول: أن قدرة العبد وان كانت غير مؤثرة ، إلا أن لها تعلقا بالفعل يسمى كسبا، وباعتباره جاز التكليف به، فلا يكون تكليفا بما لا يطاق).

وجواب الثانى : أن ما فى التكاليف من المصالح الدنيوية والأخروية يربو كثيرا على المضرة فيها ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل مما لايجوز.

وجواب الثالث: أنه فرع حكم العقل بالحسن والقبح، والغرض في التكليف يعود إلى العبد، وهو المنافع الدنيوية والأخروية التي تربو على مضرة التعب بمشاق الأفعال، وأما عقاب العبد أبدا فليس لأنه لم يحصل

---

(1) نفسه جـ٨ صـ٢٥٦ – ٢٥٧.

منفعته ، بل لأنه يمثل أمر مولاه وسيده،... والمعارضة بمضرة الكفار والعصاه مدفوعة بأن تلك المضرة مستندة إلى سوء اختيارهم.

وجواب الرابع: عندنا (أي الأشاعرة) أن القدرة مع الفعل تؤدى إلى كسب العبد للفعل، والتكليف به فى هذه الحالة ليس تكليفا بتحصيل الحاصل، وإنما يكون كذلك لو كان الفعل حاصلا بتحصيل سابق على التحصيل الذي هو ملتبس به، وما ذكره من أنه لا فائدة حينئذ (أي حين التكليف مع وجود الفعل) فإنما يتم إذا وجب الغرض في أفعاله تعالى وهو باطل، وأما جوابه عند المعتزلة: فهو أن التكليف قبل الفعل ليس ذلك تكليفا بما لا يطاق ، لأن التكليف فى الحال إنما هو بالإيقاع.

في ثاني الحال ليكون جمعاً بين الوجود والعدم.

وجواب الخامس : أن التفكر أحد أغراض التكليف، بل هو عمدتها ، وسائر التكاليف معينة عليه[1].

وقال التفتازانى فى المقاصد عن هذه الشبهة (نقد التكليف) وقد فرعها إلى شبهتين وهى موجهة إلى التكليف ابتداء، أما الأولى فقد قال عنها (قالوا : إن العمدة فى باب البعثة هو التكليف ، وهو عبث لا يليق بالحكيم ، إذا لايشتمل على فائدة للعبد لكونه فى حقه مضرة ناجزة ومشقة ظاهرة ، ولا للمعبود لتعاليه عن الاستفادة والانتفاع، وأيضا فيه شغل للقلب عما هو غاية الأعمال ونهاية الكمال، أعنى الاستغراق فى معرفته، والفناء فى عظمته.

ثم أجاب عن هذا قائلا: إن مضار التكليف الناجزة قليلة بالنسبة الى منافعها الدنيوية والأخروية الظاهرة لدى الواقفين على ظواهر الشريعة النبوية فضلا عن الكاشفين عن أسرارها الخفية، وإذا تأملتم فالتكليف صرف إلى ماذكرتم لاشغل عنه على ما توهمتم"

ثم ذكر التفتازالى الشبهة الثانية الموجهة إلى ما يشتمل عليه التكليف فقال (هذه الشبهة لأهل الخلاعة المنهمكين فى إتباع الهوى وترك الطاعة ، قالوا : إنا نجد الشرائع مشتملة على أفعال وهيئات لايشك فى أن الصانع الحكيم لا يعتبرها ولا يأمر بها ، كما نشاهد فى الحج والصلاة

---

(1) نفسه جـ٨ ص ٢٥٧ –٢٥٨ ، التمهيد الباقلانى ص١٠٢، الإرشاد إمام الحرمين ص ٢٠٤– ص٢٣٥

وكغسل بعض الأعضاء لتلوث بعض آخر، إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن قانون العقل.

ثم أجاب عن هذا فقال : والجواب: أنها أمور تعبدية ، اعتبرها الشارع ابتلاء للمكلفين ، وتطويعا لنفوسهم ، وتأكيدا لملكة امتثالهم للأوامر والنواهي ، ولعل فيها حكما ومصالح لا يعلمها إلا الله والراسخون فى العلم ، وقد أشار إليها بعض الخائضين فى بحار أسرار الشريعة[١].

ويرد الغزالى على من نقد التكليف بقوله"إن كانت العقول المستنيرة التى أدركت عظمة الخالق وضآلة المخلوق، لا تنكر على الخالق حقه أن يأمر بما يشاء، ويكفى هذه العقول المستنيرة أن تتأكد من أن الأمر صادر من خالقها ليكون واجب الطاعة والامتثال ، لأنه ليس للمخلوق أن يحاسب الخالق، وليس على الخالق أن لا يأمر إلا بما ينال رضى المخلوق، حتى يكون أمره واجب الامتثال"[٢] ويتساءل الغزالى متعجبا: لماذا يريد الإنسان أن ينصب من نفسه مشرعا ومقننا لهذا العالم اللانهائى، وهو عبارة عن نقطة واحدة فى بحر متلاطم العوالم، فيقول، (إن الإنسان ليس إلا نقطة فوق حبل ممدود فى الماضى إلى ما لا يعلم إلا الله نهايته، وعلى هذا الحبل تقع جميع المخلوقات الأخرى ، كل واحد منها يمثل نقطة واحدة فيه ، فلماذا أيها الانسان، وأنت لست إلا نقطة واحدة فى هذه اللانهائية تدعى لنفسك حق الإشراف عليها والتشريع لها، وأنت نقطة واحدة ضئيلة فى متاهات شاسعة ، لاتعرف لنفسك فيها وردا ولا صدورا[٣].

ويقول الغزالى (وغريب أن يكون ذلك قبحا، وملايين من الناس تفعله وفيهم كثيرون من العلماء والفلاسفة، فهل ألغى هؤلاء جميعا عقولهم؟ أم خفى عليهم وجه القبح فيه؟[٤]

أما فلاسفة المسلمين فقد أقروا بالتشريعات والتكاليف الإلهية التى جاء بها الرسل وأنها تنفع المكلفين فى المعاش والمعاد، وهى سبب فى

(1) شرح المقاصد جـ٢ ص١٢٩- ١٣٠، وانظر أيضا.فيصل التفرقة الغزالى صـ١٣٩- غاية المرام ص ٣٢٢ - شرح الأصول الخمسة صـ٥٥٩ - التمهيد صـ١٠٢.
(2) فيصل التفرقة - الغزالى - صـ١٣٩ .
(3) فيصل التفرقة ص١٤٣.
(4) نفسه وراجع أيضا فى الرد على من نقد التكليف الشرعى: التمهيد صـ ١٠٣ - ١٠٤ شرح الأصول الخمسة ٥٦٦

استمرار معرفة الناس بربهم ومعادهم ، وتحافظ على جوهر الرسالات من الضياع والنسيان، وذلك بسن تكليفات متعاقبة متكررة تفرض على الناس جيلا بعد جيل[١].

فالتكاليف الشرعية ليست عبثا بل لها فوائد وثمار سواء كانت حسية أو معنوية ترجع إلى العباد فى معاشهم ومعادهم وقد تحدث القرآن عن طبيعة التكليف الإلهى وأنه يصب فى مصلحة الإنسان ، ولا يمكن أن يكون ذا طبيعة تفوق الطاقة الإنسانية.

قال تعالى" (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة:٢٨٦)، (مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)(الحج: من الآية٧٨) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ)(المائدة: من الآية٦). كما تحدث القرآن أيضا عن سبب رفض التكليف الإلهي ، وأنه نتيجة المكابرة والعناد والتقليد والتعصب للآباء والأجداد ، قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (البقرة:١٧٠)

الشبهة الرابعة

وهى موجهة الى المعجزة بالطعن فيها ثبوتا ودلالة ونقلا

ويصور لنا القاضى عبد الجبار هذه الشبهة فيقول (وربما قالوا: إنه تعالى إذا بعث إلينا نبيا فلا بد من أن يظهر عليه علما معجزا دالاعلى نبوته ، ليكون فرقا بينه وبين المتنبى، ولا يمكننا أن نميز بين المعجز والحيلة بوجه، لأنه ما من معجز إلا ويجوز أن يكون من باب الشعوذة وخفة اليد وما جرى مجراهما، فيجب ألا يقبل قولهم ويعتمد على

(1) الإشارات ابن سينا ٨٠٦ - ٨٠٧ أصول الدين ٢٦- البغدادى.

العقول)[١].

ويحكى الغزالى هذه الشبهة عن البراهمة وأنهم يقولون باستحالة بعثة الرسل (لأنه يستحيل تعريف صدق الرسول ، لأن الله تعالى لو شافه الخلق بتصديقه، وكلمهم جهارا فلا حاجة إلى رسول ، وإن لم يشافه به فغايته الدلالة على صدقه بفعل خارق للعادة، ولا يتميز ذلك عن السحر والطلسمات وعجائب الخواص، وهى خارقة للعادات عند من لا يعرفها، وإذا استويا فى خرق العادة لم يؤمن ذلك، فلا يحصل العلم بالتصديق)[٢].

وقال القاضى الباقلانى فى التمهيد " واستدلوا على إبطال الرسالة بأن قالوا: وجدنا المدعين للرسالة يزعمون أنه لا طريق الى العلم بصدقهم إلا وجود محالات يمتنع فى العقل وجودها ، كفلق البحر ، وخلق ناقة من صخرة ، وقلب العصا حية، وإحياء الموتى .....الخ ..وإذا كان ذلك كذلك بطل كل مايدعونه"[٣].

وقد ذكر علماء الكلام فى كتبهم شبهات الطعن فى المعجزة وإنكار أنها فعل الله وخلقه، فقد تكون من فعل النبى، وذلك يرجع الى مخالفة نفسه لسائر النفوس، أو لمزاج خاص فى بنيته أو لكونه ساحرا ، أو لطلسم اختص بمعرفته، أو لخاصية المركبات كالمغناطيس والكهرباء أو لعلها ترجع إلى علاقة بينه وبين الجن والشياطين والأرواح الفلكية أو الملائكة ، أو أنها ترجع إلى إحاطته بعلم النجوم فيتخذ ما علم وقوعه من الغرائب معجزا لنفسه ، وأخيرا فإن تجويز انخراق العادة يرفع الإيمان بالبدهيات [١] .

الرد على هذه الشبهة :

يرى الشيخ مصطفى صبري أن من أسباب توجيه الشبهات إلى المعجزة والطعن فيها وإنكارها هو طابعها ومظاهرها الخاصة باعتبارها عملا

---

(1) شرح الأصول الخمسة – ص٥٦٤
(2) الاقتصاد ص ٩٥ – ٩٦
(3) التمهيد ص ١٠١ – ١٠٢
(1) راجع :
١-المواقف ٣٤٥- ٣٤٦
٢-المحصل: ١٥٥- ١٥٦
٣-الإرشاد: ٣٠٩-٣١٣
٤-المقاصد: حـ٢ ص١٣١ وما بعدها

مخالفا لقوانين الطبيعة المألوفة لدى البشر ، وأنها تظهر على أيدي الأنبياء بفعل من الله مباشرة بدون أن يكون لهم أي كسب أو قدرة أو أي خبرة أو معرفة سبقت لهم ، لذلك فالشبهات الموجهة إليها ليست فقط من المنكرين للنبوة والبعثة من أساسها ، بل من المجيزين لها كالفلاسفة ، ولكنهم أنكروا المعجزة لمخالفتها السنن الطبيعية المألوفة ، وزيادة على ذلك أن الأنبياء يتحدون بها أقوامهم ومن أنكر صدقهم ورسالاتهم[١].

وقد رد الآمدى في غاية المرام على من يدعى تعذر الوقوف بالعقول على صدق الرسول بأنه تصريح بتعجيز الله عن تصديق من اصطفاه وتنبأ ، وذكر طرقا ثلاثا يعرف الله بها خلقه صدق من اصطفاه واجتباه لحمل أمانته ، وتلك الطرق هي :-

أن يخلق لهم علما ضرورِيا بذلك ، أو بالإخبارِ عن كونه رسولا ، كما قال في حق آدم للملائكة" (إِني جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)(البقرة: من الآية٣٠).

إظهار المعجزة على يد مدعى النبوات ، يقول عن هذه الطرق :

"وقد يكون التعريف للصدق ، بإظهار المعجزات على يد مدعى النبوات على وجه تدين له العقول السليمة بالإذعان والقبول ، وذلك انه إذا قال : أنا رسول وآية صدقى في قولي ايتان بما لا تستطيعون الايتان بمثله، ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا .... فإذا ما ظهر ذلك على يديه مقارنا لدعوته قطع كل عقل سليم ولب مستقيم بتصديقة في قولة وتحقيقة ، وأذعن الى اتباعه وتقليده ، إذا العقل الصريح يقضى بأن ظهور الخارق للعادة مقارنا لدعوته ، وعجز الناس عن معارضته ، مع توفير دواعيهم على مقابلته وإقحامه في رسالته ، ينهض دليلا قاطعا على صدق مقالته ، واظهار البارى تعالى ذلك على يده مقارنا لدعوته ينزل منزلة الخطاب : انه رسول ، وإنه صادق فيما يقوله ، إذا لو كان ذلك اتفاقا لما وقع على وفق اخباره، وعلى حسب إيثاره واختياره[٢].

وقد ناقشهم الباقلانى في التمهيد نقاشا مطولا وأبطل قولهم باستحالة وقوع المعجزة سواء كانت تلك الاستحالة التى قالوا بها راجعة إلى قدرة الله

---

(1) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين – مصطفى صبري جـ١ – في مواضع مختلفة .
(2) غاية المرام – الآمدى صـ٣٢٧ – ٣٢٨.

تعالى ، أو راجعة العادة التى اعتادها الناس منذ أن كانوا، يقول الباقلانى "إن قالوا : هذه الأمور مستحيلة في قدرة الصانع، ألحدوا وتركوا دينهم، وقيل لهم: ما الدليل على إحالة ذلك؟ وإن قالوا: لأننا لم نجد أحدا فعله ولا يقدر عليه، ولا رأينا ذلك قط ولا جرى مثل ما تدعون ، قيل لهم: فيجب أن تحيلوا أيضا أن يخلق الله تعالى الأجسام وألا يوجد آدم إلا من ذكر وأنثى، وألا يخلق دجاجة إلا من بيضة أو بيضة إلا من دجاجة، أو نطفة إلا من إنسان، أو إنسانا إلا من نطفة ، لأن ذلك أجمع لم يوجد قط ولم يشاهد" ثم يلزمهم الباقلانى أحد امرين فيقول [فإن أصروا على ذلك لحقوا بأهل الدهر، وإن أبوه نقضوا اعتلالهم".

ثم يتابع البقلانى [وإن هم قالوا: عنينا أن هذه الأمور مستحيلة في العادة، قيل لهم: فما أنكرتم أن ينقض الله سبحانه العبادات ويظهر المعجزات على أيدى رسله لما أراده من حسن النظر لهم، ولمن علم أنه يؤمن بهم ، ويعمل من العبادات ما يكون وصلة وذريعة إلى إجزال ثوابهم، كما جاز وحسن أن يحتج عليهم بعقولهم؟ فلا يجدون إلى دفع ذلك من حيث اعتلوا متعلقا)[١].

وأما ادعاؤهم أن المعجزة قد تكون من قبيل السحر والشعوذة ومعرفة غرائب الطبيعة وغيرها، فيجيب عنه الأمدى في الغاية بقوله [إن ادعاء أن كل مقدور لله تعالى مما يمكن تأتيه بهذه الأمور مما يعلم بطلانه بالضرورة ، فإن أحدا من العقلاء لا يجوز انتهاء السحر والطلسم وغيره من الصنائع إلى فلق البحر وإحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص، وإن قيل بالتفاوت، فقد جوز من جهة العقل تصور تصديق للرسول بما لا يتأتى من السحر ولا بغيره][٢].

ويرصد القاضي عبد الجبار الفروق بين المعجز والحيلة في النقاط الآتية:-

١- المعجز من الله تعالى والحيلة ليست كذلك . ٢- المعجز خارق للعادة وناقض لها والحيلة ليست كذلك فهي قائمة على خفة اليد.

٣- المعجز لا يتعلم بعكس الحيلة.٤- المعجز لا يقع فيه الاشتراك ويقع في الحيلة.٥- المعجز لا يفتقر إلى آلات والحيلة تفتقر إليها.

---

(1) التمهيد البلاقلانى / صـ١٠٢ .
(2) غاية المرام صـ٣٣٢ الأمدى.

٦- المعجز لإعجاز أهل البراعة في الصناعة التي هو من جنسها، والحيلة لا يتوافر فيها ذلك[١] وبهذا يتبين لنا – كما قرر المتكلمون المسلمون – أن المعجزة ممكنة في ذاتها عقلا وليست مستحيلة، ولا يترتب على وقوعها وحصولها محال، وكل ما لا يترتب على وجوده محال فليس بمحال، وقد ذكر التفتازانى فى المقاصد أن إمكان المعجزة أمر ضروري، وصور شبهة القائلين باستحالتها ثم تعقبهم بالرد عليهم فقال (قدح بعض المنكرين للنبوة في المعجزات بأن تجويز خوارق العادات سفسطة، إذ لو جازت لجاز أن ينقلب الجبل ذهبا والبحر دهنا والمدعى للنبوة شخصا آخر عليه ظهرت المعجزة إلى غير ذلك من المحالات) يعنى أنها ستؤدى إلى قلب الحقائق، وترتب محالات على وقوعها ، وما يترتب عليه محال فهو محال.

ثم أجاب عن هذا بقوله "والجواب : أن المراد بخوارق العادات أنها أمور ممكنة في نفسها ممتنعة في العادة بمعنى أنها لم تجر العادة بوقوعها كانقلاب العصا حية، فإمكانها ضروري ، وإيداعها ليس أبعد من إبداع السموات والأرض وما بينهما، والجزم بعدم وقوع بعضها (مما ذكروه) من انقلاب الجبل والبحر وهذا الشخص وأمثال ذلك، لا ينافى الإمكان الذاتي"[٢].

بل إننا نجد صاحب المواقف يبين أن معجزات الأنبياء إنما هى سنة من السنن الإلهية فى تأييد الأنبياء وتصديقهم ، فالله تعالى قادر على إيقاف تأثير الأسباب فى المسببات معجزة لأنبيائه، لأن هذه سنته فيهم على مدى التاريخ، حتى صار أمراً عادياً، يقول صاحب المواقف (إن خرق العادة إعجازاً لنبى وكرامة لولى عادة مستمرة توجد فى كل عصر وأوان ، فلا يمكن للعاقل المنصف إنكاره ، أو فلا يكون حينئذ خرقاً للعادة بل عادياً

وأخيرا يقول الشيخ مصطفى صبري (إن النظام العام الذى وضعه الله دليل على وجوده ووحدانيته وحكمته فى خلقه ، فإن خرق هذا النظام بالمعجزةكان ذلك دليل على وجود أنبيائه وتصديقه لهم ، ومن هنا يمكننا ، أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله ونظامه، لكنه نظام خاص استثنائى وغريب للبشر) ويجب علينا ان نعلم أن القول بجواز خرق

---

(1) شرح الأصول الخمسة صـ٧٥٢ المغنى جـ١٥ صـ٢٦٤.
(2) شرح المقاصد – جـ٢ صـ١٣١.

العادات لايلزم معه وقوع الفوضى والاضطراب فى السنن الكونية أو أن ذلك يؤدى إلى وقوع الخبط و الخلل بتجويز وقوع االخوارق فى الطبيعة وانقلاب الحقائق كما ادعى المنكرون ، فالإمكان لايلزم منه الوقوع ، وكذلك عدم وقوع الممكن لا ينفى الإمكان فى ذاته ، فالله تعالى خلق فينا علما بأن انقلاب الشئ إلى شئ أخر ، دون ما يسمونه (سببا) أمر ممكن فى نفسه ، ولكنه لا يقع لاستمرار ما جرت عليه العادة من ترتب الأشياء بعضها على بعض بإرادة الله وحده حتى رسخ فى عقولنا أنها تجرى دائما وفق هذه العادة.

يقول الغزالى فى هذا المعنى ما نصه (الآقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا، وبين ما يعتقد مسببا ، ليس ضروريا عندنا [يعنى الأشاعرة] بل كل شيئين ، ليس هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما، عدم الأخر،... فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلفهما على التساوق ، لكونه ضروريا فى نفسه غير قابل للفوت [١].

ثم يقول بعد ذلك (إن الله تعالى خلق لنا علما بأن هذه الممكنات لم يفعلها ، ولم ندع أن هذه الأمور واجبة [أى واجب ألا تكون] بل هى ممكنة، يجوز أن تقع ويجوز أن لا تقع، واستمرار العادة بها مرة أخرى يرسخ فى أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسيخا لا تنفك عنه[٢].

"الشبهة الخامسة : بشرية الرسول"

ذكر الشهر ستانى هذه الشبهة عن البراهمة والصابئة فقال ناقلا عنهم (إن أكبر الكبائر فى الرسالة اتباع رجل هو مثلك فى الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل، ويشرب مما نشرب؛ حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعا ووضعا ، أو كحيوان يصرفك أماما وخلفا، أو كعبد يتقدم إليك أمرا ونهيا؛ فأى تميز له عليك ؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك فلا ميزة لقوله على قولك، وأما حجته ومعجزته، فخصائص

(1) تهافت الفلاسفة – الإمام الغزالى – تحقيق د/ سليمان دنيا صـ٢٣٩. ط٧- دار المعارف.

(2) نفسه صـ٢٤٥.

الجواهر والأجسام لا تحصى كثرة، وعندنا المخبرون عن المغيبات من ساوى غيره)[١]

وذكر الباقلانى أن البراهمة أحالوا على الله تعالى إنفاذ رسله إلى خلقه (لعلمه سبحانه بأن الرسول من جنس المرسل إليه ، وأن جوهرهما واحد ، وأن تفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه ومن هو بصفته حيف ومحاباة وميل وخروج عن الحكمة ، وذلك غير جائز على الحكيم)[٢]

فالشهر ستانى قد أرجع هذه الشبهة إلى المماثلة التامة بين الرسول والمرسل إليهم، فبأى وجه يستحقون الأمر والنهى والتوجيه والتحكم ، إنها لا شك عنصرية واضحة – حسب زعمهم – بينما البافلانى يرجعها إلى منافاتها للحكمة الإلهية التى تتسم بالعدل والمساواة بين سائر البشر.

ولقد ذكر القرآن الكريم هذه الشبهة على ألسنة أقوام الرسل حيث اتخذوها ذريعة لإنكار نبوتهم بنفس المنطق الذى تحدث به البراهمة .

تحدث القرآن عن أن هذه كانت شبهة قوم نوح ، قال تعالى فى قصة نوح [فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ] (هود:٢٧)

كما قال فى موضع أخر نفس القصة [فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ] (المؤمنون:٢٤). وعن قوم هود وإثارتهم لهذه الشبهة قال الله تعالى [وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ] (المؤمنون ٣٣:٣٤) الى غير ذلك من الايات العلة واضحة والشبهة جلية فى أنهم يحتجون على عدم إيمانهم بالرسل بأنهم من جنسهم وأنهم يماثلونهم فى البشرية ولوازمها ،

(1) الملل والنحل ح ٣ ص ٩٦ ، ونهاية الإقدام ص ٤٢٨ ، وفيصل التفرقة الغزالى ص ١٤٥ غاية المراد ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ المعنى ح ١٥ ص ١٤٥ ، ١٤٦

(2) التمهيد ص٨٧

يذكر الشهر ستانى فى مجال رده على هذه الشبهة أن البشرية لا تنافى الرسالة لأنه قد تضافرت الأدلة على أن الله تعالى هو خالق الخلق ومالكهم ، ومن له الأمر والخلق والملك له أن يتصرف فى عبادة بالأمر والنهى. وله أن يختار واحدا لتعريف أمره ونهيه فيبلغ عنه إليهم ، فإن من له الخلق والإبداع له الاختيار والاصطفاء (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)(القصص: من الآية٦٨)، فلا استحالة فى مراتب الاصطفاء والاختيار، ولا استحالة فى نفس دعوى النبوة ، فكل هذا من الجائرات العقلية، لاسيما وقد قام الدليل على صدق أصحاب دعوى النبوة الذين اصطفاهم الله واختارهم[١] .

وقد رد الباقلانى على هذه الشبهة فقرر ان هناك اسباب لاصطفاء الله تعالى واختياره لهؤلا الرسل ، فقال: [إن الله تعالى له أن يختص بفضله من يشاء من خلقه، وله التسوية بين سائرهم ، فإن ذلك أجمع عدل منه وصواب من تدبيره.....والله تعالى ليس يفضل أحد الشخصين على الآخر المجانس له ابتداء ، ولا لأجل جنسه، ولكن لأجل أنه مستحق للتفضيل بالرسالة وغيرها بعمله والإخلاص فى الاجتهاد ، لا سيما وأنه على مذهبكم أن الله يفضل العقلاء عندكم القابلين للحجج والبراهين العقلية على من لم يقبلهما ، لا لجنسهم ولا ابتداء، ولا لغير علة، ولكن لأنهم مستحقون للتعظيم والشكر والثناء عندكم ، لما كان من برهم وطاعتهم ، فكذلك التفضيل بالرسالة][٢]

إن رفض النبوة وإنكارها بزعم مساواة الأنبياء لساتر البشر فى الإنسانية وخصائصها ، وبحجة أن تخصيصهم بمعرفة دون غيرهم من نوعهم ميل إليهم وحيف على غيرهم ، وهو قبيح أقول: (والكلام للآمدى) يلزم على هذا الرفض والإنكار التسوية بين الخلائق فى أحوالهم، وألا تفاوت بين أفعالهم ، بحيث لا يكون هذا عالماً ، وهذا جاهلا، ولا هذا زمنا وهذا ما شيا ، ولا هذا أعمى وهذا بصيرا إلى غير ذلك من أنواع التفاوت فى الكمالات ، وحصول الملا ذو الشهوات ،و إلا عد ذلك منه قبيحا ، وهو محال ، لكنه واقع وموجود)[٣]

(1) نهاية الأقدام : ٤٢٠ – ٤٢١
(2) التمهيد الباقلانى : ص ٩٧ – ٩٨.
(3) غاية المرام ٣٢٦ – ٣٢٧.

إن الأنبياء بشر كسائر البشر ولكنهم بشر (يوحى إليهم) كما قال تعالى [قُلْ إِنَمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ] (الكهف:١١٠)

ويقر الأنبياء بالمثلية التامة بينهم وبين سائر البشر، ولكن النبوة منة من الله يمن بها على من يشاء من عباده ولا يتمكنون من شئ إلا بإذن الله تعالى [قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ] (ابراهيم:١١)

إنهم ينفون عن أنفسهم أي إدعاء يفوق طاقتهم البشرية [وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ] (هود:٣١)

إن الرسل بما أنهم بشر مصطفون من الله تعالى ويوحى إليهم لهم طرفان : بشرية ورسالة، فبطرف البشرية يشاكل نوع الإنسان ويشاركه فيأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويحيا ويموت، وبطرف الرسالة يشاكل نوع الملائكة ويشاركه، فيسبح ويقدس، ويبيت عند ربه فيطعمه ويسقيه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، ويموت قالبه ولا تموت روحه [١] .

ومن هنا يقول الدكتور عبد الحليم محمود عندما تعرض لقوله تعالى [قُلْ إِنَمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ] (الكهف:١١٠) من الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على " بشر مثلكم " أو على " يوحى إلى " حسب قوة شعوره الدينى وضعفه، فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان، ويزداد التركيز على " يوحى إلى " كلما ازداد الإيمان ، حتى يصل الإنسان إلى أن لا يرى أو يكاد يرى إلا " يوحى إلى ")[٢]

ثم إن بعض هؤلاء البراهمة والصابئة الذين تنسب إليهم هذه الشبهة قد اقروا بنبوة، بعض الأنبياء رغم أنهم بشر، يقول للبغدادى (من البراهمة قوم أقروا بنبوة آدم وإبراهيم عليه السلام وأنكروا نبوة غيرهما، وصابئة واسط أقرواه بنبوة آدم وشيث ، وزعموا أن معهم كتاب شيث و انكروا من بعدهما[٣] فكيف يسوغ لهم الإقرار بنبوة بعض البشر وإنكار

(1) نهاية الأقدام ص ٤٢٩
(2) دلائل النبوة د/ عبد الحليم محمود ص ٢٩ – ٣٠
(3) أصول الدين ص ١٥٨ ، الملل والنحل ج٣ ص ٩٥.

نبوة البعض الآخر بحجة أنهم بشر، يقول الشهرستانى فى نهاية الإقدام (أنتم معاشر الصابئة سلمتم بنبوة عاذيمون وهرمس، هما شيث وإدريس عليهما السلام، فيم عرفتم صدقهما ؟ أبمجرد الدعوى والخبر؟، أم بدليل ونظر؟ وكل ما قدرتموه دليلاً فى حق شخص واحد ثبتت به نبوته أو على الجملة صدقه فى جميع أقواله فهو دليل المخبر الثانى والثالث وإن أحلت الرسالة فى الصورة البشرية فهما بشر مثلكم وأنتم مخبرون عنهما (بشر مثلنا)، فإن قلتم أنهما كانا حكيمين عالمين لا نبيين مرسلين ، قيل : وبم وجب عليكم اتباعهما والمحافظة على حدودهما وأحكامهما وانتهاج مناهجهما فى الدعوات والصلوات والصيام والزكوات ، وقد تساوت أقدامكم فى العقول والأنفس، وتشابهت صوركم فى البشرية والإنسانية)[1] وقال الشهيد سيد قطب فى تعليقه على الآية الكريمة وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) (الاسراء:٩٤).

لقد كانت الشبهة التى عرضت للأقوام من قبل أن يأتيهم محمد ﷺ ومن بعد ما جاءهم : والتى صدتهم عن الإيمان بالرسل وما معهم من الهدى أنهم [استبعدوا أن يكون الرسول بشرا ولا يكون ملكا، وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراك الناس لقيمة بشريتهم وكرامتهم على الله ، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولاً من عند الله ، كذلك نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة ، وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار فى الأرض وهم فى صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة [قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا) (الاسراء:٩٥). فلو قدر الله أن الملائكة تعيش فى الأرض لصاغهم فى صورة آدمية ، لأنها الصورة التي تتفق مع نواميس الخلق وطبيعة الأرض كما قال فى آية أخرى (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا)(الأنعام: من الآية٩) والله قادر على كل شئ ، ولكنه خلق نواميس وبدأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره ، وقدر أن تمضى النواميس فى طريقها لا تتبدل ولا تتحول ، لتحقق حكمته فى الخلق والتكوين – غير أن القوم لا يدركون)[2].

(1) نهاية الأقدام صـ ٤٢٨

(2) فى ظل القران سيد قطب ح٤ ص ٢٢٥١ – دار الشروق ٣١ – ٢٠٠٣

المبحث الثالث

"الماركسية وموقفها من النبوة"

لقد جاء فى فتوى الشيخ حسنين محمد مخلوف (إن الشيوعية قد جحدت الإله والألوهية، والكتب السماوية، والرسالات والنبوات، وازدرت بالأديان كلها، وتنكرت لما جاءت به من عقائد وأحكام وعلوم وحاربت كل ما يرتبط بها من معابد ومعاهد.....)[1].

إن خلاصة عقيدة الماركسية فى الألوهية والنبوة والأخلاق هو أنه [لا ألوهية بتاتا، وبالتالى فلا توراة ولا إنجيل ولا قرآن، وليست هناك تعاليم تصح نسبتها إلى السماء، ومن ثم فالوحى كله خرافة لا أصل لها، والأنبياء عصابة من الكذبة، ولا مكان لصور العبادات، ولا لمعانى الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة، كما يقررها الدين[2].

أقول: لقد وجد على أرض الإسلام من يحمل هذا المنهج فى تفسير الدين وقضاياه، واعتبروا هذا الاتجاه (تجديدا) فى الفكر الإسلامي الحديث، وقاموا بإسقاط المفاهيم والرؤى الماركسية على الإسلام، لقد قاموا بتفسير الألوهية والوحى والنبوة والقرآن تفسيرا ماركسيا ماديا، ولكن الذى يهمنا هنا هو. رؤيتهم القضية النبوة – رؤية مادية ماركسية ، مما أدى بهم إلى إنكار النبوة بالمعنى الشرعى من كونها إلهية المصدر وإلهية التشريع، بل اعتبروها انعكاسا للواقع المادى وثمرة من ثمراته وكما اعتبروها أيضا حدثا تاريخيا له ظروفه وملابساته، التى لم يعد لها وجود الآن، فلا حاجة للإنسان إليها فى هذا الواقع الجديد.

وسوف أتحدث عن شخصيتين اهتم كل منهما بهذا الموضوع وأولاه عنايته وبحثه وهما: الدكتور/ حسن حنفى أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، والدكتور/ نصر حامد أبو زيد أستاذ اللغة العربية وآدابها بنفس الجامعة.

"أولا: الدكتور حسن حنفى"

يوضح لنا د/ محمد عمارة الخطوط العريضة لمشروع حسن حنفى التجديدى فيقول "إنه محاولة لأنسنة الدين، وتفريغه من محتواه، وذلك بإلغاء (ثوابته)، (ومنطلقاته) و(مقدساته)، من الله إلى النبوة، إلى

(1) نفسه صـ٥٤.

(2) نفسه صـ٦٦.

الرسالة، إلى الوحى، إلى الغيب، إلغاء كل ذلك بإعطائها مفاهيم ومضامين إنسانية أرضية ، أى إلغاء الغيب كمصدر للمعرفة، وقصرها على عالم الشهادة، وقصر سبل هذه المعرفة على (العقل) و(التجريب) وحدهما، أى إلغاء كل ما يجاوز الحس والمشاهدة، وتأويل وتفسير كل ماله علاقة بالدين والغيب والألوهية والنبوة والرسالة والوحى على النحو الذى (يؤنسنه) ويجعله إفراز بشريا .....)[١].

من هذا المنطلق إذن أتى حسن حنفى على كل العقائد الإسلامية من إلهيات ونبوات وسمعيات تأويلا وتحريفا وتشويها.

والذى يهمنا هنا هو إلقاء نظرة سريعة على أرائه فى النبوة ولوازمها من وحى ومعجزات ليتبين لنا كيف أنه ينكر النبوة تماما بمعناها الشرعى عن طريق منهجه التأويلى هذا.

بداية يرفض عقيدة النبوة كما تقررها الأديان، ويرفض تفسير النبوة كاتصال بين الله وبين الناس عن طريق نبى مصطفى مختار تتحقق فيه شروط النبوة، ويكون معدا لتحمل الرسالة الإلهية، كما يرفض المصدر الإلهى للوحى، ويجعله نتاجا للعلاقة بين الفكر والواقع، أي إنه إفراز بشرى يقول فى ذلك (فالنبوة التى تتحدث عن إمكانية اتصال النبى بالله، وتبليغ رسالة منه هى فى الحقيقة مبحث فى الإنسان، كحلقة اتصال بين الفكر، والواقع، وأن الإنسان ذو رسالة يحققها ويبلغها للأجيال القادمة، وأن الإنسان له تاريخ هو تاريخ الوحى، وإنزاله على فترات لتطور الوعى الإنسانى حتى استقلاله النهائى، وأن الوحى يمكن عقله ، ويمكن تحقيقه، ويمكن أن يكون نظاما مثاليا للعالم نجد فيه الطبيعة كما لها)[٢].

ثم إنه يقرر أنه لا حاجة إلى النبوة ، فالعقل البشرى جدير بأن يسد مسدها ويؤدى دورها وذلك من حيث استغناء العقل عن الوصاية والهداية والاحتياج إلى غيره، بل هو الذى يحكم بوجوبها أو عدم وجوبها [ليست النبوة من الواجبات العقلية إلا بناء على الصلاح واللطف، وليس كحاجة وعون ومدد نتيجة لقصور العقل وحاجته إلى وصاية وهداية)[٣].

---

(1) الإسلام بين التنوير والتزوير د/ محمد عمارة- صـ١٨٨ – طبعة أولى سنة ١٩٩٥/ دار الشروق.
(2) دراسات إسلامية / حسن حنفى صـ٣٠٢.
(3) مقدمة تربية الجنس البشرى – د/ حسن حنفى صـ٦٧.

وهو يؤول (النبوة) بأنها خبرة إنسانية، فمصدرها إذن العقل والدليل العقلى الذى يفوق الدليل النقلى ، فالعقل فى تأويلاته أفضل من النقل، والوحى متطور مستمر، إنه وحى العقل وخيرة الإنسان ولا حاجة إلى وحى النبوة وأحكامها، وبناء على هذا نراه (يحل العقل محل النبوة)، فالعقل فى نظره لا حدود لقدراته، إنه يستطيع الوصول إلى جميع ما أتى به الأنبياء، سواء فى ذلك أمور العبادة وتفاصيلها وأمور المعاد وما فيه، إنه بديل النبوة ، إن الدليل العقلى له من المزايا ما يجعله مقدما على الدليل النقلى، بل وأكثر منه مصداقية ويقينية، إنه دليل لا يتطرق إليه الشك، وهو أفضل من الدليل النقلى[١].

إنه ينكر إلهية مصدر النبوة، وينكر إلهية المعارف النبوية، ويقرر أنها معارف حسية دنيوية، ولا يمكن خروج النبوة عن كونها أرضية بشرية كما أنه يطعن فى دليل صدق النبى وهو المعجزة. [فالنبوة ليست غيبية بل حسية تؤكد على رعاية مصالح العباد والغيبيات واغتراب عنها، والمعارف النبوية دنيوية حسية تتعلق بشئون الناس وصلاح معاشهم، كما أنها إخراج للنبى عن حدود الطاقة البشرية، وجعل صدق النبوة خارجيا وليس داخليا، وضد قوانين العقل والطبيعة وليس معها، كما أن هذه المعانى الزائدة المشخصة وقوع فى الغيبيات وإخراج للنبوة من محورها الأفقى، النبوة فى العالم ومسارها فى التاريخ، إلى محورها الرأسى: النبوة كطريق بين النبى والله ، طريق للوصول خارج الزمان وخارج التاريخ][٢].

فالنبوة بمعناها الشرعى إنما هى ضد العقل والطبيعة، ويجب تفريغها من مضامينها الشرعية من كونها وحيا إلهيا وصلة بين الله والنبى، أى تحويل الاهتمام بها من محورها الرأسى (الله ← النبى) إلى محورها الأفقى (النبوة ← العالم ← التاريخ)، ولذلك فهى تعبير عن تاريخ الإنسان، وليس الوحى إلا التاريخ الإنسانى الماضى، كما أن السمعيات هى تاريخ المستقبل (النبوة تشير إلى تطور الوحى فى الماضى، والوحى هو التاريخ، والمعاد يشير إلى تاريخ الإنسانية فى المستقبل)[٣].

---

(1) من العقيدة إلى الثورة جـ١ صـ٤٠١.
(2) نفسه ٤/٢٣.
(3) نفسه ٤/٥.

وبعد هذا كله ألا يحق لنا أن نحكم على هذا الرجل بأنه يدخل ضمن المنكرين للنبوة الملحدين فيها، والداعين إلى تعطيلها وإهمالها، إنه يقر بالنبوة بألفاظها اللغوية فقط ولكنه ينكر حقائقها ومضامينها الشرعية بتأويلاته الفاسدة التى لا يساعده عليها لغة ولا عرف .

وقد جره موقفه هذا من (النبوة) إلى إنكار (أياتها) وهى (المعجزات) الدالة على صدق الأنبياء فى بلاغهم عن الله تعالى، ونراه يكرر نفس الشبه التى قال بها البراهمة فى قدحهم فى النبوة والمعجزات، فلم يأت الرجل بأى جديد.

ويؤكد حسن حنفى على أن المعجزات إنكار لقوانين الطبيعة، وهى قدح فى العقل، وقدح فى الطبيعة، وتكرارها يدل على أنها ليست خوارق للعادات، وإنما هى حوادث تتكرر على مر العصور فى كل زمان ومكان، وبالتالى ينتفى معها طابعها الفريد، ويجوز العقل وقوع أمثالها فى الماضى والحاضر والمستقبل، ما يهم فقط هو رصد حوادث التاريخ ومعرفة تاريخ البدر والأبطال وحياة القادة العظام[١].

ثم نراه يطعن على المعجزات بأنها قد تكون راجعة إلى طبائع الأشياء وخصائصها وليست خرقا لقوانينها، لأن قوانين الطبيعة - كما يرى- ثابتة لا تخرق بفعل أحد، وفى القول بذلك زعزعة الثقة بالعقل وبالعلم، فقوانين الطبيعة إذن وخواص الأشياء تمنع من التصديق بالمعجزة، وإذن فليس شىء منها من فعل الله[٢]. ويمعن حسن حنفى فى إنكار دور المعجزات فى النبوة وهو إثبات النبوة بتصديق النبى فيما يبلغ عن الله تعالى فيقول: [وقوع النبوة لا يثبت حتى بالمعجزات المتواترة، ولا يعنى وجود قدرة مطلقة أنها تثبت إطلاقها وسلطانها بالوقوف أمام قدرات أخرى: قدرة العقل وقدرة الطبيعة، بل الأقرب أن تكون متفقة مع العقل والطبيعة، وما دام العقل أساس الوحى، وأن بدهيات العقل ومسلماته هى ذاتها حقائق الوحى وتصوراته، فلا يكون هناك أى دور لنزول المعجزة... وما الفائدة من جعل النبى هرقلا[٣].

والمعجزات فى نظره أيضا ليست إلا رموزا معبرة عن إمكانيات الإنسان التى لا حدود لها، ولا علاقة لها بنبوة ولا أنبياء [ليست المعجزة

---

(1) نفسه جـ٤ / ٧٧.
(2) نفسه ٤/٧٨.
(3) نفسه ٤/١٦٥.

دليلا على صدق خاتم الرسل، بل دليل الوحى ذاته من النواحى الأدبية والفكرية والتشريعية ، وليس ذلك معجزة بل إعجازا ... إن المعجزة بوضعها القديم تأخذ مدلولا جديدا، وهو قدرة الإنسان المطلقة على الفعل وتخطى العقبات، وعلى عدم وجود المستحيل أمامه[١] ويؤول المعجزات الواردة فى القرآن تأييدا لسائر الأنبياء وتصديقا لهم تأويلا إجماليا بأنها خرافات وخداع ولم تحظ إلا بتصديق العوام والبسطاء، ويسىء فهم قوله تعالى) كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ)(الاسراء: من الآية٥٩)، يقول (كانت المعجزات بالمعنى القديم خرقا لقوانين الطبيعة وجريانا على غير المألوف وصدما لبدهيات العقول ونقضا لشهادات الحس، لا تسلم من خداع أو وهم ، وإن كانت حقيقة فتدل على جهل بقوانين العلم، ومن الناحية العملية لم يؤمن بها إلا البسطاء، وكذب بها الأولون، وكانت وسيلة الوحى لتغيير بناء الشعور البشرى وتحريره من سيطرة الطبيعة المستغلقة، أو من سيطرة السلطان البشرى القاهر، ولم تنجح هذه الوسيلة فى كثير من الأحيان، فهى استبدال خرافة بخرافة)[٢].

ثم نراه بعد ذلك يتطرق إلى معجزات الرسول محمد ﷺ ويؤولها أيضا تأويلا إجماليا فيقول [إنها قد صيغت بناء على أنماط مثالية سابقة معروفة ومروية فى الجزيرة العربية، وشكلت خيال الرواة للدين الجديد، وربما وضع كثير منها فى نطاق (دسائس اليهود والنصارى) إرجاعا للإسلام إلى المراحل السابقة وطمسا لخصائص الدين الجديد ، لأنه على مستوى المعجزات لا يمكنه الصمود أمام القدر الهائل منها فى النبوات السابقة، والدليل على ذلك وضع علماء أصول الدين ما يسمى بالمعجزات الجديدة فى إطار المعجزات القديمة، وكيف اجتمع لخاتم الأنبياء كل المعجزات القديمة بعد أن كانت متفرقة فى الأنبياء السابقين، وكأنها مباراة ومنافسة فى إجراء المعجزات كما وكيفا)[٣].

ثم نراه بعد ذلك يفصل القول فى بعض المعجزات بما يؤدى إلى الخروج بها عن حقائقها، يقول [فإنباؤه بالغيب وإنذاراته كثيرة: منها دعاء اليهود إلى تمنى الموت، وإخبارهم عن عجزهم عن ذلك ، وأنهم لن يتمنوه أبدا، وقد يتأتى ذلك بمعرفة الطباع، واستقراء لسلوكهم فى التاريخ، دون

---

(1) نفسه ٤ /٨٩.
(2) نفسه ٤/١٨٢ - ١٨٣.
(3) نفسه ٤/١٦٦.

أن يكون فى ذلك بالضرورة تنبؤ بالغيب، ومن ذلك إنذاره بمصارع أهل بدر بحضرة الجيش موضعا موضعا، وقد يكون ذلك نتيجة للمعرفة بقوانين الحرب وموازين القوى ... وقد تحمى المدن قبل البعثة وأثناء ولادته إكراما له، مثل رمى الله جيش أبرهة صاحب الفيل بالحجارة عام غزوه مكة وتلاوة ذلك فى القرآن حتى الآن بركة ودعوة .... ولا يمنع ذلك من وجود طير جارح فى الصحراء بجموع غفيرة، كما هو الحال فى موسم هجرات الطيور بحثا عن طعامها فى الصحراء، ولم تبق شيئا من بقايا الجيش وبقايا طعامه، والهدف من ذلك أنه كما أن شخص الرسول محاط بالرعاية فكذلك مكان مولده ومركز شعائره وقدسية مدينته)[1].

وهكذا فكل ما اثاره يمكن تلخيصه فى النقاط الاتية :

١- استحالة ان يبعث الله بشرا رسولا

٢- عدم الحاجة الى النبوة ، لان العقل البشرى يسد مسدها ويكفى عنها

٣- الطعن فى المعجزة والوحى الى الانبياء وانه مصدر المعارف النبوية وتلك كلها شبه لا جديد فيها ، ومخالفة تماما لحقيقة النبوة والوحى والمعجزة ، وهى تكرار لشبه البراهمة، وقد سبق الرد على كل ذلك فى مبحث: البراهمة وشبههم والرد عليهم فلا حاجة الى تكراره.

ثانيا: "نصر حامد أبو زيد وإنكار ه النبوة"

إن جوهر الماركسية هو (المادية الجدلية) وهى تعنى أنهم يفسرون كل شىء فى الطبيعة أو فى المجتمع تفسيرا ماديا، ويشمل ذلك التفسير العالم و الخلق والوجود و المصير و التاريخ والدين والفكر والاقتصاد والاجتماع والسياسة والآداب والفنون وحتى اللغة ..... إلخ بل وحتى أحلام الإنسان وعواطفه وأشواقه، فلا شىء فى الوجود سوى المادة، ولا وجود لماهيات أو مفاهيم أو أفكار مفارقة للمادة والطبيعة.

وقد قدم الماركسيون فى نشأة الفكر – ومنه الدين – وفى علاقته بالمادة والواقع ما عرف باسم (نظرية البناء الفوقى والبناء التحتى) وعن طريق هذه النظرية يفسرون نشأة الأفكار والدين..... إلخ فالمادة والواقع

(1) نفسه ٤ / ١٧٩ : ١٨١ .

(البناء التحتى) ويتمثل فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والفسيولوجية، هما مصدر كل ألوان الفكر، والذى هو البناء الفوقى الذى تصنعه وتشكله المادة والواقع، ليعود ثانية – هذا الفكر كى يؤثر فى الواقع ، فى جدل مستمر، صاعد من الواقع، وعائد للتأثير فى الواقع، ولا شىء وراء ذلك الواقع[1] .

تلك هى نظرة الماركسيين للفكر والدين والخلق والخالق، وللعلاقة بين البناء التحتى – المادى – والبناء الفوقى الفكرى، وبناء على ذلك فليس الإسلام باعتباره فكرا ودينا إلا (بناءا فوقيا) وانعكاسا للبناء التحتى الاقتصادى والاجتماعى والدينى السائد فى ذلك الوقت الذى ظهر فيه، وهذا هو منهج نصر أبو زيد فى تناوله بالتحليل لأسس الإسلام: القرآن – النبوة والوحى – العقيدة – الشريعة.

"رؤيته للقرآن تمهيد لإنكار النبوة"

إننا نراه يقول عن القرآن الكريم مثلا إن الواقع بمعطياته هو الذى شكل نصه ومحتواه [إن الواقع هو الأصل، من الواقع تكون النص (القرآن)، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته، فالواقع أولا، والواقع ثانيا، والواقع أخيرا....][2].

ويقول فى مواضع أخرى [إن النص تشكل من خلال ثقافة شفاهية..... والوقائع هى التى أنتجت النصوص[3].....ففى مرحلة تشكل النص فى الثقافة ، تكون الثقافة (فاعلا) والنص (منفعلا)[4]..... وتكون الثقافة – يعنى اللغة- فاعلا، والنص مفعولا..)[5].

ويؤكد أبو زيد على أن القرآن – كبناء معرفى- ليس إلا انعكاسا لما يسمى بالبناء التحتى- الذى كونه وشكله، يقول [فالواقع الذى تشكل النص من خلاله يشمل الأبنية الاقتصادية والإجتماعية والسياسية والثقافية، ويشمل الملتقى الاول للنص ومبلغه، كما يشمل المخاطبين بالنص...][6]. ويؤكد فى موضع آخر خطأ ما سماه (مناهج الخطاب الدينى)، التى تدرس

(1) التفسير الماركسى للإسلام – د/ محمد عمارة / صـ٣٤ – ٣٥ / دار الشروق / ط١ ١٩٩٦.

(2) نقد الخطاب الدينى / صـ٩٩/نصر أبو زيد – طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢.

(3) مفهوم النص صـ١٠٩.

(4) نفسه صـ٢٠٠.

(5) نقد الخطاب الدينى صـ٢٢١.

(6) مفهوم النص صـ٣٠.

النصوص الدينية – بمنهج (الديالكتيك الهابط) والتى تعتبر النص نازلا من (الله) إلى (النبى) معالجة وحلا لمشاكل (الواقع) فى حين أن منهجه هو يمثل (الديالكتيك الصاعد) نافيا بذلك أى وجود للقرآن مفارق لواقع.

يقول فى كل ما تقدم [وإذا كانت كل هذه النصوص تشكلت فى الواقع والثقافة، فإن لكليهما (الواقع والثقافة) دورا فى تشكيل هذه النصوص.... ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة فى تشكيل هذه النصوص يمثل نقطة الانفصال، وربما التدابر بين منهج هذه الدراسة، وبين المناهج الأخرى التى يتبناها الخطاب الدينى المعاصر عند مناقشة مثل هذه القضايا، حيث يعطى الأولوية عند مناقشة النصوص الدينية للحديث عن الله (قائل النص)، ثم يلى ذلك الحديث عن النبىﷺ (المستقبل الأول) للنص ، ثم يلى ذلك الحديث عن الواقع ... إن مثل هذا المنهج بمثابة ديالكتيك هابط، فى حين أن منهج هذه الدراسة ديالكتيك صاعد.....)[١].

إنه يعيب على الأمة إيمانها بقداسة القرآن وألوهية مصدره ويؤكد على أنه (منتج ثقافى)، يقول [قد يقال: إن النص القرآنى نص خاص، وخصوصيته نابعة من قداسته وألوهية مصدره)[٢]. لكن [الإيمان بوجود ميتا فيزيقى سابق للنص يطمس الحقيقة ... فالنص فى حقيقته وجوهره منتج ثقافى، والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما....][٣]. لقد أثرت (ثقافة الواقع الجاهلى فيما يدعى ويزعم، تأثيرا مباشرا فى تكوين القرآن وتشكيله، فها هو يتحدث عن (الحنيفية، بقايا ديانة إبراهيم – عليه السلام- فيقول [لا يمكن فى حالة النص القرآنى مثلا تجاهل الحنيفية، بوصفها وعيا مضادا للوعى الدينى الوثنى الذى كان سائدا ومسيطرا .... ومعنى ذلك أن النص القرآنى يمثل فى جانب منه جزءا من بنية الثقافة][٤].

ويرى أبو زيد أن النص القرآنى نص (منتقى) من التوراة والإنجيل – مع إعادة توظيف وتأويل بما يتواءم ويتناسب مع الواقع الجاهلى، يقول [أما الموقف من النصوص الدينية، فقد اعتمد آلية الانتقائية

---

(1) نفسه صـ٢٩.
(2) نفسه صـ٢١.
(3) نفسه صـ٢٧ ، ٢٨.
(4) مجلة (القاهرة) – إصدار السباق فى تأويلات الخطاب الدينى (أبوزيد / يناير ١٩٩٣.

التى تقبل الأجزاء ، وتعيد توظيفها وتأويلها، أما الأجزاء المرفوضة، فتم تصنيفها فى خانة الانحراف، أو التحريف الناتج عن الضلال)[١].

كما يرى أيضا أن من ضمن (ثقافة الواقع الجاهلى) الشعر والمعلقات، ويرى أيضا أن لهما تأثيرا مباشرا فى تكون القرآن وتشكله، يقول [إن النص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص ... وإذا كان يتشابه فى تركيبه تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلا، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكون النص القرآنى، كما يتمثل فى تعدد مستويات السياق المحددة لدلالة كل جزء من أجزائه..... وهذه التعددية النصية فى بنية النص القرآنى تعد فى جانب منها نتيجة للسياق الثقافى المنتج للنص ، لأنها تمثل عناصر تشابه بين النص ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعرى بصفة خاصة][٢].

وإذا كان القرآن حسب هذه الرؤية قد تشكل وتكون انطلاقا من الواقع وانعكاسا له ، فإنه وطبقا لمنهج المادية الجدلية قد عاد مرة أخرى للتأثير فى الواقع والتحويل له، وجمع هذا المنتج فى طياته ثلاثية الرحلة الجدلية التى تتكرر وتطرد بغير انقطاع أو توقف، وتلك الثلاثية هى :-

أ) القضية (وهى هنا (تشكل القرآن من الواقع)

ب) نقيض القضية (وهى محاولة التغيير والتحويل لهذا الواقع)

ج) الجمع بين القضية ونقيضها (وهى هنا خلق واقع جديد ومنظومة ثقافية جديدة"

يقول فى ذلك [فالقول بأن النص منتج ثقافى، يمثل بالنسبة للقرآن مرحلة التكون والاكتمال، وهى مرحلة صار النص بعدها منتجا للثقافة، والفارق بين المرحلتين فى تاريخ النص هو الفارق بين استمداده من الثقافة وتعبيره عنها، وبين إمداده للثقافة وتغييره لها][٣].

---

(1) نفسه.
(2) نفسه.
(3) مفهوم النص صـ٢٨.

إنه يرى أن النبوة "ليست إعجازا مفارقا لقوانين المادة والطبيعة والواقع، وإنما هى مجرد درجة قوية من درجات الخيال الناشىء عن (فاعلية المخيلة الإنسانية)، يتصل بها النبى بالملك ، كما يتصل بها الشاعر بشيطانه، وكما يتصل بها الكاهن بالجان، فهى- أى النبوة - (حالة من حالات الفاعلية الخلاقة للمخيلة الإنسانية) وليست (ظاهرة فوقية مفارقة) للواقع وقوانينه المادية..... والفارق بين النبى وبين الشاعر والصوفى والكاهن هو فقط فى (الدرجة) - درجة قوة المخيلة، وليس فى الكيف والنوع)[١].

وفى هذا يقول الدكتور نصر(إن تفسير النبوة اعتمادا على مفهوم (الخيال) معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية (المخيلة) الإنسانية التى تكون فى (الأنبياء) - بحكم الاصطفاء والفطرة - أقوى منها عند من سواهم من البشر، وإذا كانت فاعلية (الخيال) عند البشر العاديين لا تتبدى إلا فى حالة النوم وسكون الحواس عن الانشغال بنقل الانطباعات من العالم الخارجى إلى الداخل، فإن (الأنبياء) و (الشعراء) و (العارفين) قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية (المخيلة) فى اليقظة والنوم على السواء ، وليس معنى ذلك التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة (المخيلة) وفاعليتها ، فالنبى يأتى على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفى العارف، ثم يأتى الشاعر فى نهاية الترتيب)[٢].

وهكذا ، فالاتصال عند هؤلاء جميعا منطلق من قوانين المادة، والواقع الثقافى البشرى، وعلى حد تعبير الدكتور نصر (فإن النبوة فى ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة، ويمكن أن يفهم الانسلاخ أو (الانخلاع) فى ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة[٣]..... وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحى- القرآن-لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع ، أو تمثل وثبا عليه وتجاوزا لقوانينه،

---

(1) نفسه صـ٥٥.
(2) مفهوم النص صـ٥٦.
(3) نفسه صـ٥٩.

بل كانت جزءا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها وتصوراتها....)[١].

ولقد جره هذا المنهج الماركسى إلى تبنى منهج آخر هو (المنهج الوضعى-المادى) الذى يقول بتاريخية النصوص الدينية ، فينفى عن معانيها ودلالتها الأصلية أى ثبات أو استمرارية أو خلود، ويصدر حكمه بطى صفحة معانى القرآن التى نزلت بها ألفاظه[٢].

وهناك الكثير من أقواله التى يصر فيها ويصمم على تاريخية المعانى والأحكام القرآنية والتصريح ببشريتها ومنها قو له(إننا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية ... وإذا كانت النصوص الدينية نصوصا بشرية بحكم انتمائها للغة والثقافة فى فترة تاريخية محددة، هى فترة تشكلها وإنتاجها، فهى بالضرورة نصوص تاريخية ... وليس معنى القول بتاريخية الدلالة تثبيت المعنى الدينى عند مرحلة تشكل النصوص، ذلك أن اللغة ليست ساكنة ثابتة ، بل تتحرك وتتطور ، وتطور اللغة يعود ليحرك دلالة النصوص وينقلها فى الغالب من الحقيقة إلى المجاز...)[٣].

وهكذا فمعانى القرآن الكريم ودلالات ألفاظه ، التى كانت (حقيقة) فى عصر الوحى والتنزيل ، قد أصبحت - بتاريخية النصوص- "مجازا" عند الدكتور نصر، أى أن التاريخ قد طوى وتجاوز (حقائق) القرآن الكريم[٤]. ونراه يقول فى نص آخر "إن الخطاب الإلهى خطاب تاريخى، لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا، له إطلاقية المطلق وقداسته المطلقة[٥].... إن القرآن نص دينى ثابت من حيث (منطوقه)، لكنه من حيث (مفهومه) يتعرض له، العقل الإنسانى ويصبح (مفهوما) يفقد صفة الثبات.... ومن الضرورى هنا أن نؤكد أن حالة النص الخام المقدس حالة ميتافيزيقية لا ندرى عنها شيئا... والنص منذ لحظة نزوله الأولى تحول من كونه (نصا إلهيا) وصار فهما (نصا إنسانيا) لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل ، إن فهم النبى للنص يمثل أولى مراحل حركة النص فى تفاعله بالعقل البشرى،

---

(1) نفسه صـ٣٨.
(2) التفسير الماركسى صـ٦١.
(3) نقد الخطاب الدينى صـ١٩٧ ، ١٢٨.
(4) التفسير الماركى صـ٦٤.
(5) مجلة القاهرة مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق- اكتوبر ١٩٩٢.

ولا التفات إلى مزاعم الخطاب الدينى بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص، على فرض وجود مثل هذه الدلالة الذاتية ....)[١].

فالقرآن الذى يبين أيدينا هو نص بشرى، وليس نصا إلهيا، إنه ليس (التنزيل) الذى تعهد الله بحفظه، لأنه نص لغوى، فهو لذلك بشرى، تحول عن كونه (نصا إليها) إلى أن أصبح منذ أول تلاوة نبوية له إلى (نص إنسانى)، فهو ليس (كتاب الله) وإنما هو (كتاب البشر)، والحديث عن منطوقه الثابت والمقدس هو حديث عن (حالة ميتافيزيقية) لا ندرى عنها شيئا، وحتى ما ذكره القرآن عن هذه الحالة الميتافيزيقية، فإننا نفهمه فهما إنسانيا نسبيا متغيرا لا ثبات فيه ولا قدسية له ، وعلى فرض - وهو مجرد فرض - أن القرآن كانت له دلالات ذاتية، فإن هذه الدلالات لم يفهمها حتى الرسول نفسه، فالرسول - لبشريته- عاجز عن فهم حقيقة الرسالة وكنه البلاغ القرآنى وجوهر الدلالات الإلهية للنص القرآنى!![٢].

وبعد: فتلك هى مقاصد نصر أبو زيد من دراسته ومشروع نهضته: (تأريخية) تلغى الوحى بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، وهل بعد كل هذا يمكن لنا أن نلتمس أى إقرار منه أو إيمان بإلهية القرآن الكريم وقدسيته، ومفارقة ظاهرتى النبوة والوحى للواقع والطبيعة وقوانينهما.

لقد تواترت الآيات المحكمات التى تتحدث عن القرآن باعتباره (تنزيلا)، نزل به الروح الأمين-جبريل عليه السلام- من عند رب العالمين على قلب رسولِ الله ونبيه محمد ﷺ ، وفى هذا تقرير لنبوته ﷺ وتأكيد لها قال تعالى(وَإِنهُ لتَنْزِيل رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء:١٩٢)(عَلَى قَلْبِكَ لتكونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) (الشعراء:١٩٤) . وقال (نزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْأِنجِيلَ) (آل عمران:٣). وقال (تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان:١) . (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (الاسراء:١٠٥) (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا) (الاسراء:١٠٦)

أليست هذه آيات ناطقة بأن هذا القرآن، قد كان له وجود مفارق للواقع الذى نزل فيه.... إن أحدا من المسلمين - على اختلاف مذاهبهم وأقطارهم

(1) نقد الخطاب الدينى صـ٩٣ ، ٩٤.
(2) التفسير الماركسى صـ٦٥.

وعصورهم - لم يختلف على ذلك حتى صار معلوما من الدين بالضرورة، وأجمع عليه المسلمون واجتمعوا، وذلك بصرف النظر عن تأويلات العلماء وتصوراتهم للصورة التى كان عليها القرآن الكريم فى هذا الوجود المفارق للواقع البشرى، وهذا - ولا ريب شهادة بنبوة محمد ﷺ وأن القرآن ليس من عنده إنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم:٤)

ويقرر الشيخ محمد عبده ، أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى (الوجود المفارق) - والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى ﷺ.... فثبت بهذه المعجزة العظمى، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتنا وله التبديل أن نبينا محمد ﷺ رسول الله إلى خلقه، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه .... وقد جاء فى هذا الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك"[١].

فهل من الممكن بعد ذلك أن نمسخ عقولنا ونشوه أفكارنا ، ونلوث عقائدنا، ونقول بأن محمدا ليس نبيا وإنما هو مفكر ماركسى تبدى له هذا الفكر ووضعه فى كتاب سماه (القرآن) وهل من الممكن أن يكون القرآن نتاجا لما يسمى (المادية الجدلية) ، ذلك المنهج الذى سلكه (ماركس) فى تفسير للظواهر المادية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ، وأنا هنا لا يعنينى مناقشة المذهب الماركسى وبيان تهافته، بقدر ما يعنينى إبطال تطبيق هذا المنهج على تفسير الإسلام وقضاياه، ولا سيما قضية الوحى والنبوة.

أما عن إدعاءاته بأن القرآن الكريم قد تأثر فى تشكله وتكوينه بالكتب السابقة عليه- وبخاصة التوراة والإنجيل - فإنها ادعاءات باطلة لأن المسلمين يؤمنون بأن القرآن قد جاء مصدقا لما لم يحرف أهل الكتاب من تلك الكتب ، ومستوعبا للصادق منها ؛ لذلك فهو مهيمن عليها ، وكاف عنها ، وأنه قد صحح ما حرفوه من بعض مواضعها، وما نسوه وما كتموه من آياتها، وما نبذوه وراءهم ظهريا من عقائدها وشرائعها، يؤمن المسلمون بأن هذه هى علاقة القرآن بالكتب الدينية السابقة عليه، وذلك انطلاقا من محكم آيات القرآن التى تقول ")وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

(1) رسالة التوحيد صـ١٢٥ - ١٢٩.

مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة:٤٨) وقد قرر الله تعالى هذة الحقائق فى صور عديدة منها : النساء :٤٦ المائدة : ١١ ال عمران : ١٨٧ كذلك يؤمن المسلمون بأن القرآن هو أحسن ما أنزل الله من كتب لصلاحه لكل زمان ومكان، (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر:٢٣). (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) (الزمر:٥٥)

وأما زعمه أن القرآن يشبه الشعر الجاهلى – وبخاصة شعر المعلقات، فقد أجمعت الأمة على أن كتاب الله تعالى: (ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)(يس: من الآية٦٩). لا شبه بينه وبين الشعر (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يس:٦٩). (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (الحاقة:٤٠). (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) (الحاقة:٤٢).

وأما بالنسبة لتقريره (تاريخية) معانى ودلالات النص القرآنى وتصميمه على ذلك فإن هناك منهجا لفهم تلك المعانى وهذه الدلالات ذواتى الخلود والأبدية.

أقول: إن هذا القول بتلك التاريخية يفرغ القرآن من محتواه ويجعله أوعية فارغة وقوالب لا معنى لها، فالنتيجة إذن هى تحويل النص القرآنى الإلهى إلى نص بشرى إنسانى، وإلغاء الوحى وعدم الإيمان بالنبوة، إن من نتائج القول بالتاريخية قصر الأحكام والمعانى القرآنية على فترة زمنية محددة هى فترة عصر التنزيل، وربط نصوص القرآن بأسباب نزولها دون تعديها إلى غيرها ، مع أن المسلمين قد أجمعوا وآمنوا بأنه (لا مرحلية) ولا (تاريخية) فى فهم القرآن وتفسيره، يقول الأستاذ الإمام فى بيانه لمنهج فهم القرآن وتفسيره "فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكررفى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة – كلفظ (الهداية) وغيره – ويحقق كيف يتفق معناه مع معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب بين معانيه .... إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة على معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول،

واتفاقه مع جمله المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته[١]..... فداوم على قراءة القرآن ، وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحى"[٢].

إن هذا المنهج (اللاتاريخى)، أى الرافض لربط المعانى بتاريخ بعينه تطوى صفحته بمرور هذا التاريخ، هو عند المسلمين (دين) وليس خيارا إنسانيا لمنهج من المناهج فى التعامل مع النصوص، لارتباطه بختم القرآن للوحى الإلهى ، وختام الإسلام لشرائع السماء إلى الإنسان، وبمعنى الحفظ الإلهى لهذا القرآن، فالقرآن : ألفاظ ونظم ودلالات ، ولن تكون هناك قيمة فكرية إذا وقف الحفظ عند حدود الألفاظ، مع إهدار المعانى وتجاوزها، فعندما يقول الله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:٩)، فإنه يشرع لخلود القرآن – ألفاظا ونظما ودلالات – لنظل ثوابت العقيدة والشريعة خالدة ، ولتستمر الصيغة الإسلامية لحضارة الإسلام، عبر الزمان والمكان[٣].

هذا ما قدمه نصر أبو زيد حول القرآن ، والنبوة والوحى والعقيدة والشريعة، وتاريخية النصوص الدينية ، وهو تقديم يقرر فيه (بشرية) الدين، ويقطع الصلة بين الله تعالى وبين خلقه، ففيه إنكار للثوابت الدينية والمفاهيم الشرعية المتعلقة بالإلهيات والنبوات والسمعيات، إنه طرح ينكر النبوة والوحى. وإلهية القرآن وقدسيته.

المبحث الرابع

"موقف اليهود من نبوة محمدﷺ"

لقد أنكر اليهود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم ينكرون النسخ فى الشرائع، وذلك ضمانا منهم لبقاء الدين اليهودى ، ولذا قد خصص من لم ينكر النسخ منهم نبوة محمد ﷺ بالعرب دون سائر الأمم ، وزعم اليهود أن القول بالنسخ يستلزم نسبة (البداء) و(الجهل) إلى الله تعالى، كما يستلزم نسخ الشرائع تغير الارادة الإلهية ، ومن ثم الذات الإلهية ، وهذا كله محال عقلا ودينا ، وقرر اليهود أن ليس هناك إلا شريعة واحدة ، وهى التى بدأت بموسى عليه السلام – واختتمت به ، فلا

---

(1) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ صـ١١. دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة – طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣.

(2) نفسه جـ١ صـ٦٧٠.

(3) التفسير الماركسى صـ٦١.

شريعة قبله ولا بعده ، وهكذا يمثل إنكار النسخ فى الشرائع أصلاً ثابتا ودعامة أساسية ، وركنا من أركان العقيدة اليهودية، يقول الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون فى الركن التاسع من أركان تلك العقيدة ، إنه يجب على اليهودى أن يقرر ما يأتى " أنا أؤمن إيمانا تاماً أن هذه الشريعة لا تتغير، وإلا لا تكون شريعة من لدن الخالق تبارك اسمه (١)

وهو نفس ما قرره الشهر ستانى عنهم، يقول على لسانهم " واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وهى ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به ، فلم تكن قبله شريعة إلا حدود عقلية ، وأحكام مصلحية، ولم يجيزوا النسخ أصلاً قالوا : قلا تكون بعده شريعة أصلاً ، لأن النسخ فى الأوامر بداء ،و لا يجوز البداء على الله تعالى)(٢) ولقد أدى هذا الموقف من النسخ إلى إنكار اليهود لنبوة سيدنا محمد ﷺ والقول باستحالتها، بل إن بعضهم قد اعتراف بها، وأنكر عالميتها وختمها للرسالات السماوية،

وجاء فى شرح المواقف " اعلم أن المنكرين لبعثته ﷺ خاصة : قومان أحدهما : القادحون فى معجزته كالنصارى ، وثانيهما : اليهود، إلا العيسوية منهم ، فإنهم سلموا بعثته لكن إلى العرب خاصة، لا إلى الخلق كافة)(٣)

وبالجمع بين هذه الأقوال نجد أن المنكرين لنبوة محمد ﷺ ثلاث طوائف :-

الطائفة الأولى: المشركون والنصارى والمجوس ، وهذه الطائفة تنكر نبوته ﷺعنادا وحسدا ، ويمارون فى معجزاته ، وهؤلاء يبطل إنكارهم بإثبات نبوته ﷺ بالنظر فى المعجزات وبيان وجه دلالتها على صدقه ﷺ.

الطائفة الثانية: جمهور اليهود ، هؤلاء ينكرون نبوية ﷺ لأنهم يمنعون نسخ شريعة موسى عليه السلام .

---

(١) دلالة الحائرين [أركان اليهودية] – موسى ميمون – الترجمة الإنجليزية عن الأصل العربى للكتاب ، فريد لندر – لندن ١٩٠٤ – نقلا عن : منهج المتكلمين : دراسة وتقويم – د / عرفان عبد الحميد – مجلة: إسلامية المعرفة ص ٩٠ – ٩١ إصدار المعهد العالمى للفكر الإسلامى – العدد ٨ – ابريل سنة ١٩٩٧

(2) الملل والنحل ح٢ ص ١٦

(3) شرح المواقف ح٨ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان

الطائفة الثالثة: (العيسوية من اليهود ، وهى طائفة تقر بنبوته ، وتنكر عالميتها وختمها السائر الرسالات السماوية ، وتدعى أنه مرسل للعرب خاصة .

أما الطائفة الثانية هم جمهور اليهود – فهم ينكرون نبوته ﷺلأنه النسخ باطل عندهم، فلا يجوز نسخ شريعة موسى عليه السلام عندهم بحال ، وخصوصا أنهم يزعمون وجود نصوص توراتية تخبرهم بأبدية رسالة موسى واستحالة نسخها ما دامت السموات والأرض ، ويرتبون على وقوع النسخ إلزامات لا تليق بذات الله تعالى، يقول البغدادى فى أصول الدين " وزعم أكثر اليهود أن الأمر إذا ورد مطلقا لم يجز ورد نسخ حكمه بعده ، وأجاز آخرون منهم النسخ من طريق العقل، وقالوا : إنما لم نقر بنسخ شريعة موسى عليه السلام لأنه أمرنا بالتمسك بها أبدا)(١)

ويقول القاضى عبد الجبار " إن اليهود لما أنكروا نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام افترقوا: فمنهم من قال : إنما أنكرنا نبوتهما لأنهما أتيا بنسخ شريعة موسى ، وذلك يقتضى أن يصير الحق باطلا ، والباطل حقا، وذلك محال، وربما قالوا : إن النسخ يقتضى البداء ، وهو أن يكون قد ظهر لله تعالى من حال تلك الشريعة لما كان خافيا، وذلك يخرجه هن كونه عالما لذاته؛ ومنهم من قال : إن نسخ الشريعة جائز من جهة العقل ، الا أن السمع منع من ذلك ، وقد قال موسى عليه السلام : شريعتى لن تنسخ أبدا، فلهذا الوجه أنكرنا نبوة من جاء بعده)(٢)

ويقول الكمال بن الهمام فى المسايرة (وأما الفرقة الثانية فقد تمسكت بشبهتين واهيتين، وحجتين ضعيفتين :

أولاهما: أن إرسال نبى بعد موسى معناه نسخ شريعته ، والنسخ معناه ظهور البداء والخطأ،وذلك محال على الله تعالى ، فيستحيل، ما أدى إليه ، وهو إرسال بنى موسى .

ثانيهما: أن موسى قد قال عليكم بدينى ما دامت السموات والأرض " وهو نبى لا يكذب ، فمحال أن يكون نبى بعده)(٣)

---

(1) أصول الدين ص ٢٢٦

(2) شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٦

(3) المسايرة فى علم الكلام – العلامة كمال بن الهمام الحنفى ص ١٣٠ – الطبعة الأولى – المطبعة المحمودية / مصر

كما جاء فى شرح المواقف " احتج اليهود المنكرون بوجهين ":

الأول : أن نبوته تقتضى نسخ دين من قبله ، لكن النسخ أمر محال لأنه يدل إما على الجهل أو البداء ، وكلاهما محال على الله تعالى ، لأنه لابد أن يكون الحكم الصادر عنه تعالى مشتملاً على مصلحة لئلا يلزم الترجيح بلا مرجح ، وحينئذ لو كان فى الحكم المنسوخ مصلحة لا يعلمها فالجهل ، وإن كان يعلمها فرأى رعايتها أولاً ، ثم أهملها بلا سبب. ثانيا فالبداء .

الثاني من الوجهين : أن موسى عليه السلام نفى نسخ دينه ، ولا بد من الاعتراف بصدقه لكونه نبيا ، بيانه : أنه تواتر عنه " تمسكوا بالسبت ما دامت السموات والأرض " وأيضا : إما أن يكون موسى قد صرح بدوام دينه أو بعدم دوامه أو سكت عنهما والأخيران باطلان.

أما الثانى : فلأنه لو قال ذلك لتواتر عنه قطعا ، لكونه من الأمور العظيمة التى تتوافر الدواعى على نقله ، لكنه لم يتواتر إجماعاً .

وأما الثالث : وهو سكوته عنهما ، فلأنه يقتضى ثبوت دينه ، مرة واحدة وعدم تكرره وأنه معلوم الانتفاء لتقرره إلى أوان النسخ، إما بشريعة عيسى أو بشريعة محمد باتفاق بيننا وبينكم"[1]

وقد رد المفكرون الإسلاميون على ما تمسك به اليهود من حجج وشبه ، فتناولوها بالتفنيد والتصحيح .

يقول صاحب المقاصد مفندا الوجه الأول وهو لزوم العبث والجهل والبداء للقول بجواز النسخ إن وقوع النسخ جائز ليحدد المصالح المختلفة بالزمان والأحوال وهذا نصه " والجواب أنه لمصلحة تجددت وحصلت بعد ما لم تكن ، فإن المصالح تختلف باختلاف الأزمان والأحوال ، فرب دواء يصلح فى الصيف دون الشتاء ، ولزيد دون عمرو ، لهذا ورد فى التوراة أن أدم آمر بتزويج بناته من بنيه ثم نسخ وفاقا"[2]

ويرد على الوجه الثانى بقوله " والجواب : أنه مرسل عن توقيت الوجوب مثلاً وتأبيده ، والمعلوم عند الله استمرار الوجوب إلى غاية ، هى وقت نسخه ، ورفعه ، ولا تناقض فى ذلك سواء كان الواجب تؤقتا أو مؤبدا... وإنما التناقض فى رفع الوجوب بعد تأبيده ، كما إذا قيل :

---

(1) شرح المواقف ص٨ ص ٢٨٦ - ٢٨٧
(2) شرح المقاصد : ج٢ ص١٤٠

الوجوب ثابت أبداً ، ثم نسخ ، فيكون زمان لا وجوب فيه وهذا لا نزاع فى امتناعه"[1]

وهكذا فالمسألة كلها يتعلق بها العلم الإلهي إيجادا وعدما و أمرا ونهيا ، وتأقيتا وتأبيداً .

ويرد البغدادى بأن وقوع النسخ غير مستحيل عقلا فلا تلزم عليه تلك اللوازم، لأن الله لا يخفى عليه شئ ماضياً وحالا أو استقبالا ، يقول البغدادى " وهذا غلط منهم – أى من اليهود – لأن الذى يجوز عليه البداء هو من خفى عليه العواقب ، فأما عالم الغيوب فإنه إذا أمر بشئ مطلقا ثم نسخه ، علمنا بنسخه أن مراده بالأمر الأول إنما كان إلى الوقت الذى نهى عن فعل مثله ، ولم يظهر له شئ كان مستورا عنه ، ولم ينه فى الثانى بما أمر به فى الأول ، وإنما نهى عن فعل مثله ، فلم تكن الطاعة معصية، ولا العدل جورا ، ولكن ما كان طاعة فى وقت صار مثله بعد النسخ معصية، وهذا غير مستحيل فى العقل [2]ويتوسع الشهر ستانى فى الرد بمنهج السبرو التقسيم، فيؤصل معنى المستحيل ويبنه أقسامه، ثم يؤصل معنى البداء ويبين أنه لا يلزم على القول بإثبات وقوع النسخ فأفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض ، فلا استحالة فى وقوع النسخ عقلا، سيما وقد وقع شرعا يقول " يقال لهم : المستحيل على نوعين : مستحيل لذاته كاجتماع السواد والبياض فى محل واحد فى حالة واحدة ، ولا شك أن رفع التكليف وحكمه بعد ثبوته ليس من ذلك القبيل ، ومستحيل لما يفضى إليه من المحال ، كخلاف المعلوم ، ولا محال ههنا يفضى إليه النسخ إلا البداء والندم.

والبداء يطلق على معنيين : أحدهما الظهور .، يقال بدا له الشئ : إذا ظهر " و بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون " وهذا لا يجوز على الله تعالى ، فإن المعلومات كلها ظاهرة لديه مكشوفة عنده ، والنسخ لا يؤدى إلى ذلك ، لأنه كان عالما بذلك التكليف عند توجهه على العبد، وكان عالما برفعه عند النسخ ، فلم يظهر له أمر بتجدد لم يعلمه، ولا رفع الحكم لأنه ظهر له شئ آخر، ويطلق البداء على الندم على ما كان ، والندم هو أن يقول قولا أو يفعل فعلاً ولغرض ، ثم يرى أن المصلحة فى غير ما صدر عنه قولا وفعلاً ، وهذا أيضا لا يجوز فى وصف البارى

---

(1) نفسه ح١ ص ١٤٠
(2) أصول الدين ص٢٢٧

تعالى ، فإنه لا يفعل فعلاً لغرض ، وإذا فعل بخلاف ذلك لم يفعله لمصلحة وغرض آخر ، بل أقواله وأفعاله لا تعلل، فلا يتصور فى حقه الندم ولا يفضى النسخ إلى الندم فتعين القول بأن النسخ غير مستحيل عقلاً، ثم وقوعه شرعا من أدل الدليل على أنه غير مستحيل عقلاً[١].

ويواصل الشهر ستانى الرد على اليهود فيما تمسكوا به من شبه بإلزامات لا يستطيعون الإفلات منها فيقول " لا شك أن موسى عليه السلام تأخر وجودا عن آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب وجماعة من الأنبياء والأسباط عليهم السلام ، فهل كان جميع ما ورد به موسى مشروعا لهم ، أو منها ما كان مشروعا ، ومنها ما لم يكن مشروعا؟ فإن كان كله مشروعا لهم ، فلم يرد موسى بشريعة أصلا بل قرر الشرائع الماضية ، إن ورد حكم واحد غير ما ثبت فى شرعهم ، فقد تحقق أن الحكم الأول مرفوع بذلك الحكم ، أو قد انتهت مدة الحكم الأول وتجدد هذا الحكم ، فيثبت النسخ ".

ثم يفند الشهر ستانى حجتهم فى أن القول بجواز النسخ يلزم عنه التناقض فى الأحكام الشرعية وانقلاب الحق باطلا والباطل حقا ، والحسن قبيحا والقبيح حسنا ، فيبين أن احكام الأفعال من الحل والحرمة ، والحظر والوجوب ليست صفات ذاتية للأفعال، لأن مقياس الحق والباطل والحسن والقبيح إنما هو الشرع لا العقل ، فلله التصريف والتكليف والخلق والأمر.

ويقول الشهر ستانى : " إن الحظر والوجوب أحكام لا ترجع إلى الأفعال حتى تكون صفات لها ، ولا الأفعال كانت على صفات من الحسن والقبح ورد الشرع بتقريرها ، ولا قول الشارع أكسبها صفات لا تقبل الرفع والوضع ، بل الأحكام راجعة إلى أقوال الشارع ، وتوصف الأفعال بها قولا لا فعلا ، شرعا لا عقلا ، فيجوز أن يرتفع بعضها بعض ، وذلك كالحرمة فى الأجنبيات ترتفع بالعقد الصحيح ، والحل فى المنكوحة يرتفع بالطلاق، وكأحكام المقيم تخالف أحكام المسافر، وأحكام الرجال فى بعض الأحوال تخالف أحكام ربات الحجال ، وإذا كانت الأحكام قابلة

(1) نهاية الأقدام ص ٤٩٩ : ٥٠٣ ، ورجع فى هذه الردجود : ١- التمهيد ص١٤٥ ٢- شرح الأصول الخمسة ص٥٧٧ ٣-الأرشاد ص٣٤٠ : ٣٤٢ ٤- الأقتصاد ص٩٩:

للرفع والوضع والتغيير والتبديل ، فما المستحيل فى وضع أحكام على أقوام فى زمن ثم رفعها عن أقوام فى زمن آخر[١]

ويعتمد صاحب المواقف فى رده على اليهود على أصل من أصول الأشاعرة، وهو أن الله تعالى لا يجب عليه شئ من فعل أو ترك ، لأنه تعالى فاعل بالاختيار ، وحتى على مذهب وجوب فعل الصلاح والأصلح فر بما يكون هناك مصلحة حادثة لا يعلمها ، وعلى كل الاحتمالات ، فالأحوال والأزمان لا تتحد .

جاء فى شرح المواقف " والجواب : أنه لا يجب رعاية المصلحة فى الأحكام عندنا ، فلا يلزم اشتمال الحكم المنسوخ على مصلحة ، وإن وجب أن تراعى المصالح فى الأحكام فربما حدثت مصلحة لم تكن حاصلة قبل ؛ فإن المصالح تختلف بحسب الأوقات، كشرب الدواء الخاص فى وقت دون وقت ، فربما كانت المصلحة فى وقت ثبوت الحكم لاشتماله فيه على ما يجب رعايته، وفى وقت آخر ارتفاعه لاشتماله فيه على مصلحة أخرى حادثة بعد زوال الأولى ، أو مرجوحيتها مقيسة إلى الثانية ، فلا يلزم ما ذكرتم من الجهل أو البداء ، وكيف لا يجوز ما ذكرناه ، والمحكوم عليه هنا أى فى نسخ شرائع من قبلنا بشريعتنا ليس بمتحد ، إذ تلك لأقوام آخرين وهذه لنا "[٢]

ويسهب ابن حزم فى الرد على اليهود ، ويضمن رده النقاط الآتية :-

١- الله تعالى يفعل الشئ ونقيضه ، ولا يسأل عما يفعل .

٢- إلزامهم بالدليل من خلال أحكامهم الشرعية التوراتية ووقوع النسخ ومشروعيته عندهم .

٣- (وجود البداء) فى التوراة وهو أشد وانكى من النسخ .

يقول ابن حزم فى النقطة الأولى : (وعمدة من أبطل النسخ أن قالوا : إن الله عز وجل يستحيل منه أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه ، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلا ، والطاعة معصية ، والباطل حقا والمعصية طاعة " ثم يرد عليهم فيقول " لا نعلم لهم حجة غير هذه ، هى من أضعف ما يكون من التمويه الذى لا يقوم على ساق ، لأن تدبر أفعال الله كلها وجميع

(1) نفسه ص٥٠١ – ٥٠٢

(2) شرح المواقف المجلد الرابع ح٨ ص ٢٨٦

أحكامه وآثاره تعالى فى هذا العالم يتقن بطلان قولهم هذا ، لأن الله تعالى يحيى ثم يميت ثم يحيى ، وينقل الدولة من قوم أعزة فيذلهم ، إلى قوم أذلة فيعزهم ، ويمنع من شاء ما شاء من الأخلاق الحسنة والقبيحة (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (الانبياء:٢٣). أما بالنسبة للنقطة الثانية : فيقول فيها " ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم؟ أليس دماؤهم لكم حلالا ؟ وقتلهم حقا و فرضا وطاعة ؟ فلا بد من بلى ، فنقول لهم ، فإن دخلوا في شريعتكم ، أليس قد حرمت دماؤهم ، وصار عندكم قتلهم حراما ، وباطلا ومعصية بعد أن كان فرضا وحقا وطاعة؟ فلا بد من بلى ثم إن عدوا فى السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضا بعد أن كان حراما ؟ فلا بد من بلى ، فهذا إقرار ظاهر ببطلان قولهم ... وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذى أبوه وامتنعوا منه .

ويقول عن النقطة الثالثة والأخيرة : " فى توراتهم " البداء " الذى هو أشد من النسخ، وذلك أن فيها أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : سأهلك هذه الأمة ، وأقدمك على أمة أخرى عظيمة، فلم يزل موسى يرغب إلى الله تعالى فى أن لا يفعل ذلك حتى أجابه وأمسك عنهم . وهذا هو " البداء " بعينه والكذب المنفيان عن الله تعالى[١].

"أدلة اليهود النقلية على استحالة النسخ ومناقشتها"

تمسك اليهود بنصوص نسبوها إلى موسى عليه السلام ، تفيد نفى نسخ شريعته ، وأنه أخير بأيديتها ما دامت السموات والأرض ، وأنه قد دعى اليهود إلى تكذيب كل من دعا الى نسخ شريعته وتبديلها بشريعه أخرى .

وقد نقل علماء الكلام هذه النصوص وقاموا بدراستها وتحليلها ، ثم فندوها وأبطلوها بالحجة والبرهان.

قال القاضى عبد الجبار ذكرا حجتهم " ومنهم من قال : إن نسخ الشريعة جائز من جهة العقل، إلا أن السمع منع من ذلك، وقد قال موسى عليه السلام " شريعتي لن تنسخ أبداً ، فلهذا الوجه أنكرنا نبوة من جاء بعده "[٢].

وقد فند القاضى هذا الدليل السمعى ، فطالبهم بإثبات صحته ، ثم سألهم : هل المقصود بالنص إبطال نسخ الشريعة اليهودية على يد من معه معجز،

---

(1) الفصل ح١ ص ١٨٠ -١٨١
(2) شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٦

أم على يد من لا معجز منه وهذا يقتضى تأويل النص وعدم الأخذ بظاهره، ثم طعن القاضى فى فجوى النص وترجمته لأن موسى عليه السلام كان يتكلم العبرية وليس العربية، ثم ناقش اليهود فى طعنهم فى النص الوارد عن رسول الله ﷺ بأنه خاتم النبيين ، وهذا هو نصه مع طوله يقول القاضى [وأما قول موسى " شريعتى لا تنسخ أبداً " فنطالبهم بتصحيح هذا الخبر عن موسى عليه السلام ، ولا يجدون إلى ذلك سبيلا ، ومتى قالوا : إن هذا من الأخبار المتواترة ،فلا معنى لإنكاره ، قلنا : لو كان كذلك لعرفناه نحن على طول اختلاطنا بكم ، ومناظرتنا إياكم ، ونحن لا نعرفه ، فكيف يمكنكم ادعاء التواتر فيها؟

ثم يقال لهم : لا يخلو حال هذا الخبر من أحد وجهين : فإما أن يكون المراد به أن شريعتى لا تنسخ على يدى من معه معجز ، أو على يدى من لا معجز معه ، فإن أردتم به أن شريعتى لا تنسخ على يدى من لا معجز معه فإنا نوافقكم ، وان أردتم به أنها لا تنسخ على يدى من معه معجز ، فإن ذلك مما لا يجوز أن يكون قد أراده موسى عليه السلام لأن ذلك يقدح فى نبوته ، ويكون لأمته أن يقولوا : فلم وجب اعتقاد نبوتك وإلا نقياد لك ، وقد جوزنا أن يكون هنا صاحب معجزة ، لا يلزمنا متابعته والاعتقاد بنبوته والانقياد له ، وإذا كان الأمر بهذه الصفة فلا وجه للأخذ بظاهره الخبر لو ثبت صحته ، سيما وقد ثبتت نبوة محمد ﷺ بالأدلة القاطعة ، فيجب أن يتأول، لأن كلام الأنبياء لا يجوز أن يتناقض .

وتأويله : هو أن شريعتى لا تنسخ على يدى من لا معجز معه ؛ وعلى أن يوشع كان نبيا فى زمن موسى عليه السلام وبقى بعده ، وقد نسخ شريعته بشريعة موسى، ولا يمكن ادعاء أنه لم يكن معه شريعة أصلاً ، وإلا كان لا يثبت فى بعثته والحال هذه، **وبعد**: فإن هذا الخبر ليس هو من كلام موسى عليه السلام ، فإن المعلوم أنه كان لا يتكلم بلغة العرب وإنما كان يتكلم باللغة العبرانية فلا يمكن الاحتجاج بظاهره، سيما ومن المجوز أن يكون المترجم قد أخل بقرينة كانت معه ، فلم يفسرها ...

فإن قالوا : لو أمكن أن يقال فى كلام موسى عليه السلام: شريعتى لا تنسخ ما ذكرتموه ، لأمكن أيضا مثله فى قول نبيكم محمد (لا نبى بعدى) فما الفصل بيننا وبينكم فى ذلك ؟

قلنا : أول ما فى هذا أنه لا يمكن إنكار أن هذا من كلام محمد ﷺ بخلاف ما أوردتموه ، على أنا لم ندع أنه خاتم الأنبياء لهذا الخبر ، فإنا نعلم من

دينه ضرورة أنه خاتم الرسل وخاتم الأنبياء ، لهذا شاركتمونا فى العلم بذلك مع إنكاركم نبوته ، وشككمتم فى صدقه .

ومتى قالوا : وكذلك نحن نعلم من دين موسى ضرورة أنه خاتم الأنبياء .

قلنا : إن هذا مما لا سبيل لكم إليه ، فلو كان كذلك لشاركناكم فى العلم به على طول مخالطتنا لكم ومناظرتنا إياكم ، ونحن لا نعلم ذلك من دين موسى ضرورة ، فكيف يصح لكم ذلك ؟ ومعلوم أن يوشع كان نبيا بعده ، كما كان نبيا فى زمانه ، وأيضا فقد بشر عليه السلام بمجئ كثير من الأنبياء بعده ، فكيف **يقال :** إن من المعلوم من دينه ضرورة أنه لانبى بعده .

فإن قالوا : هب أنكم علمتم من دين نبيكم ضرورة أنه آخر الرسل ، فبأى طريق علمتم ذلك ؟ **قلنا :** إنما علم نبينا ذلك بالاضطرار إلى قصد جبريل، الذى علم ذلك من جهة الله تعالى بأن بين له أن صلاح أمة محمد لا يتغير عما هو عايه، ولا يمكنكم ادعاء هذه الطريقة فى كلام موسى عليه السلام ؛ فبان الفصل بين الموضعين[1] .

ثم ينافش البلاقلانى احتمال أن يقلب اليهود هذا النقد والتفنيد

ويقولوا: ما الذى يدل عندكم على منع نبى بعد نبيكم عليه السلام ، فإن قيل لهم : هو الخبر المتواتر ، وهو ما نقله كافة الأمة من قوله عليه السلام (لانبى بعدى) طعنوا فى تواتره ، كما طعنا – نحن – فى تواتر خبرهم عن موسى عليه السلام .

يقول " الفرق بين خبرنا وخبركم الذى ادعيتم على موسى ثلاثة أمور :

أحدهما : أن ما نقلناه لكم هو لفظ الرسول ﷺ غير مفسر ولا منقول بتفسير ونقل يمكن دخول الغلط والتحريف فى مثله ، ليس كذلك سبيل خبركم ، لأنه منقول من لغة إلى لغة.

الوجة الأخر : أن نبينا ﷺ لما قال : (لانبى بعدى) تلا قوله تعالى:(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (الأحزاب: من الآية٤٠)، وعراه مما يوجب تصديق نبى بعده ، وامر بتكذيب كل مدع لنبوة معه وبعد موته... وموسى عليه السلام قرن خبره الذى تدعونه عليه بالأمر بتصديق الرسل بعده ، وقد صدقتم بوشع وحز قيل واليسع وداود وسليمان ، وصدقت " العيسوية " منكم بنبوة

---

(1) شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٩ – ٥٨٢

أبى عيسى الأصبهانى ، وانتم تنتظرون المسيح إلى اليوم ، وتنتظرون رسلا تأتيكم إلى يومنا هذا، ونبينا ﷺ منع من ذلك ووقف عليه واكده ؛ بأن الفرق بين الأمرين .

الأمر الثالث : أن الله تعالى عندنا وعندكم لا يبطل الحجج بعضها ببعض ، ولا يقلب العلوم ولا يغير حقائق الأمور ، فلو كان موسى قد وقفكم على منع نسخ شريعته توقيفا ينفى وجوه سائر الاحتمال عنه ويضطركم به إلى مراده ، لكان لا يخبر ذلك إلا عن الله تعالى، ولو أمره الله بذلك ووقفه عليه وألزمه توقيف خلقه عليه وإعلامهم إياه ، لم يجز أن يظهر المعجزات على يد من يدعو إلى نسخها وتبديلها ؛ وفى ثبوت نقل المسلمين للقرآن وغيره من الأعلام ، وثبوت الإعجاز وفيما نقلوه عن نبيهم بالأدلة التى نقلناها والنقل الذى يحج بمثله دليل على كذب مدعى توقيف موسى عليه السلام ، على ما قلتم .

فهذه فروق بين الدعويين تبين صحة ما قلناه وبطلان ما ادعيتم [1]

وبعد أن ذكر الغزالى الأمر الثالث السابق فى نقد الخبر وتفنيده وتساءل : كيف يصدق الله تعالى بالمعجزة من يكذب موسى عليه السلام نراه يقول [هذه الشبهة إنما لقنوها بعد بعثة نبينا محمد ﷺ ، وبعده وفاته ، ولو كانت صحيحة لاحتج بها اليهود ، وقد حملوا بالسيف على الإسلام ، وكان رسولنا ﷺ مصدقا بموسى ﷺوحاكما على اليهود بالتوراة فى حكم الرجم وغيره ... ومعلوم قطعا أنهم لم يحتجوا به ، لأن ذلك لو كان لكان مفحما لا جواب عنه ، ولتواتر نقله ، ومعلوم أنهم لم يتركوه مع القدرة عليه[2]

أما ابن حزم فنراه يحكم بالكذب على هذا النص ، ويضع قانونا عاما للدلالة على صدق النبوة ، وهذا القانون واقع وصادق بالنسبة لنبينا ﷺ.

يقول ابن حزم (أما قول اليهود عن موسى وهو : لا تقبلوا من نبى أتاكم بغير هذه الشريعة، فهو كذب موضوع، ليس فى التوراة منه شئ، وإنما فيها (من أتاكم يدعى نبوة وهو كاذب فلا تصدقوه) ، قالوا : فمن أين نعلم كذبه، من صدقه ؟ قال انظروا فإذا قال عن الله شيئا ولم يكن كما قال فهو كاذب " هذا نص ما فى التوراة، فصح بهذا أنه إذا أخبر عن الله تعالى بشئ فكان كما قال فهو صادق ، وقد وجدنا صدق ما أخبر به محمد

---

(1) مراجع هذه الدراسة للقاضى الباقلانى فى التمهيد ص ١٤٠ – ١٤٤

(2) الأقتصاد د / صـ١٠٥

ﷺ فى غلبة الروم على كسرى ، وإنذاره بقتل الكذاب العنسى ، يـوم ذى قار ، وبخلع كسرى.

"الرد على اليهود فى موقفهم من رسالة نبينا محمد ﷺ"

إن لنا فى الرد على اليهود فى موقفهم من رسالة "النبى محمدﷺ "مقامين :

المقام الأول :

ذكر ماورد من البشارة به ﷺ فى الكتاب المقدس لإلزام اليهود الحجة .

المقام الثانى : بيان الحكمة من وقوع النسخ فى الشرائع ووقوعه فى الشريعة اليهودية

المقام الأول : النبوات بمحمد ﷺ فى الكتاب المقدس

أقول فى البداية : إن المسلمين على مدار تاريخهم لم يهتموا بنبوات الكتاب المقدس ولم يجعلوها ضمن أدلة إثبات النبوة، إلا أن تقريرهم أن نبيهم مبشر به فى الكتاب المقدس قد دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: " (الذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٤٦) ، ومصدر هذه المعرفة قد قررها القرآن الكريم أيضا فى قوله تعالى:)الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف:١٥٧). لقد سلك المسلمون فى إثبات نبوته ﷺطريقا ومسلكا غير عبر البغدادى فى أصول الدين بقوله " ودليل صحتها تواتر الأخبار عن معجزاته ﷺ الناقضة للعادة كالقرآن الذى عجزت العرب عن معارضته بمثله ، وقد تحداهم به مع حرصهم على تكذيبه ، وكذلك سائر معجزاته ، مثل انشاق القمر، وتسبيح الحصى فى يده ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام اليسير، وإقبال الشجرة إليه ورجوعها بأمره إلى مغرسها ، ونحو ذلك من الأمور الناقضة للعادة الدالة على صدق من ظهرت عليه فى دعواه"[1]

---

(1) أصول الدين – البغدادى ص١٦١ – ١٦٢

وإننا لنجد القرآن الكريم يتحدى اليهود ويثبت تذبهم فى إنكار بعثته ﷺ إذ كيف يتصور أن يصدر عنهم هذا الموقف مع ذكره ﷺ والتبشير به فى كتابهم المقد من إن علماء تاريخ الأديان المقارن يلاحظون أنه بالرغم من كثرة ذكر الرسل والأنبياء فى الكتاب المقدس إلا أنه عندما تأتى البشارة بمجئ محمد ﷺ، فإنهم يخفونها أو يجحدونها ولا يعترفون برسالته، فما السبب ؟

ويرى الفيلسوف " جارودى " أن مصيبة تاريخ الأديان المقارن أنه يحمل فى الغرب علامة العصر الذى ولد فيه ، ولذلك فهو يتميز بظاهرتين:-

الأولى : أنه فيما يخص الإسلام ، فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحى الإسلامى اعتمادا على تأكيد صحة وحيها هى، وهذا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن التعصب هو أحد أسباب إنكار نبوة نبينا ﷺ.

الثانية : المسلمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل إمكانية للتسامى بشكل مفاجئ فى التاريخ، والتى تنزوى فى أفكار مسبقة لتزعم أن لاشئ ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة[1]

أما البروفيسور عبد الأحد داوود فقد كان أكثر صراحة، لأن تمكنه فى علم الأديان المقارن وتخصصه فى علم اللاهوت وإحاطته الواسعة بالكتب الدينية عند اليهود والنصارى كل ذلك مكنه من اكتشاف عدة حقائق ، أعلنها على الملأ فى شكل تحقيقات وبحوث علمية موثقة ، وتستند إلى مراجع لا سبيل لأهل الكتاب فى الطعن فيها .

ويذكر البروفيسور – كأحد نماذج التحريف – أنه بدافع حقد اليهود على إسماعيل عليه السلام – قام النساخ وفقهاء الشريعة بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة، فشطبوا اسم (إسماعيل)، ووضعوا اسم (إسحق) بدلا منه، وقاموا أيضا بحذف الوصف الخاص بإسماعيل (ولداك الوحيد) لإنكار وجوده، وقام النصارى بتحريف من نوع آخر، فغيروا ترجمة كلمة من معناها الأصلى إلى معنى آخر مغاير ، وتفضيل

---

(1) الإسلام دين المستقبل ، جارودى ص٦٦ / ترجمة عبد المجيد بارودى / دار الايمان / بيروت / دمشق ١٩٨٣ نقلا عن : الإسلام والأديان /د/ مصطفى حلمى ص ٢٣٠ / طبعة أولى ١٩٩٠

ذلك أن الأصل فى خطاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام قوله (لأنك يا إبراهيم قبلت أن تضحى بابنك الوحيد من أجلى فسوف أزيدك وأضاعف من ذريتك)

ولكن المسيحيين عندما قاموا بترجمة هذه الكلمة العبرية التى تعنى (وفير) أو (كثير)من الفعل "para" ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو (الحمار المتوحش) وعندئذ يبدى هذا العالم دهشته الممتزجة باللوم والسخط على هذا الفعل، ويتسائل : أليس من العار والكفر أن ينعت إسماعيل – بهذا اللفظ – وهو النبى الذى كرمه الله فنعته بـ" صاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد"[1]

وأدته دراسته فى علم اللاهوت ، وتبحره فى علم تاريخ الأديان فى معرفة الكتاب المقدس ونبواته إلى الإقرار بالحقيقة التى لا محيد عنها، وهى أن محمدا ﷺهوالهادى، وهو روح الحق الذى بشر به المسيح عليه السلام[2].

لقد اعتنق هذا البرفسور الإسلام عن اقتناع تام بعد كثرة البحوث والقراءات والمقارنات وأراد بوحى من إيمانه العميق إثبات تحريف الكتاب المقدس لنصوص النبوات، وأتى بالنصوص المحرفة ، بسبب الترجمة وطابقها مع ما يقابلها مكتوبا باللغة الأصلية ، وعندئذ أذهله أن كل النصوص المعنية بالنبوات تنصب على رسول الله ﷺ ، ولا يتسع المجال لعرض بحوثه تفصيلاً ، ولكن يعنينا فقط الإلمام بطريقة التحريف المتبعة، والتى بواسطتها ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ.

وسنتدرج لنبين منهجه أولا ثم نصل إلى تطبيق هذا المنهج على بعض النصوص الدالة فى أصلها على الرسول ﷺ .

فمن معالم منهجه أنه أخذ (يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة)[3] فوقف على أهم الحقائق التى غابت عن القساوسة " ولو حاول القساوسة اللاهوتيون النصارى معرفة حقيقة كتبهم المقدسة التى وردت أصلاً باللغة العبرية بدلا من ترجمتها، كما يفعل المسلمون الذين يقرؤن قرآنهم بنصه العربى، لاتضح لهم أن الله تعالى –

(1) محمد ﷺ فى الكتاب المقدس/ عبد الواحد دوادص٦١ / ترجمة فهمى شمالة / / مراجعة أحمد محمد الصديق طبع رئاسة المحاكم الشرعية بقطر – نقلا عن المصدر السابق .
(2) المرجع نفسه ص٣٤
(3) المرجع نفسه ص ٢٨ ، ٣٧

هو نفس الاسم القديم السامى للكائن الأعلى الذى أوحى وكلم آدم وجميع الرسل من بعده[1].

وفى ضوء هذا المنهج مضى للتحقق من أن البنوءات الواردة بالكتاب المقدس تحققت بالحرف الواحد وصدقت على محمد ﷺ.

وسوف نكتفى هنا بعرض ثلاث من هذه النبوءات .

النبوءة الأولى :

ما ورد فى التوراة (صفر التثنية – الفصل الثامن عشر – الجملة ١٨)

" أقيم لها نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه "

ويرى البروفسور عبد الأحد أن هذه الكلمات ما لم تنطبق على محمد ﷺ فإنها تبقى غير متحققة، فالمسيح – عليه السلام – نفسه لم يدع أنه النبى المشار إليه ، وكذلك لا يتطلع حواريوه إلى عودته لكى تتحقق النبوءة (وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوص بأن الظهور الأول للمسيح لم يكن ليدل على ما جاء فى الجملة " أقيم لهم نبيا مثلك " وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل هذه الكلمات، وأن المسيح كما تؤمن به كنيسته، سوف يظهر كقاض وليس كمقدم للتشريع، بينما " الموعود " هو الذى يجئ حاملاً " الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى"[2]

النبوءة الثانية :

الكلمات الواردة فى التوراة فى الفصل ٣٣ االجملة ٢ ، تنص على ما يلى " جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ من جبال فاران ، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم "

ومن الثابت فى رأى البروفيسور عبد الأحد أنه لم يكن لأحد من الإسرائيليين بما فيهم المسيح عليه السلام أية علاقة بـ(فاران) ، فإن (هاجر) مع ولدها (إسماعيل) هم الذين سكنوا فى قفار (فاران)، وكذلك فإن (بيت الرب الذى يمجد (اسمه فيه) المشار إليه فى الإصحاح (٦٠ الجملة ٧) هو بيت الله الحرام فى مكة وليس كنيسة المسيح، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون .

(1) المرجع نفسه ص ٢٨ ، ٣٧
(2) المرجع نفسه ص٣١

وبحكم معرفته الواسعة بالتاريخ وتفاصيله، ووقوفه على أعداد المسلمين الذين دخلوا مكة المكرمة لفت نظره تحديد عدد العشرة آلاف (فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة) بفقار (فاران) فإنك لا تجد أية حادثة أخرى غير هذه المماثلة. وهى أنه عندما فتح النبى ﷺ مكة، ودخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه فى المدينة ثم يعود إلى (بيت الله)، وبيده اليمنى الشريعة التى حولت جميع الشرائع الأخرى إلى دمار[1].

النبوءة الثالثة :

وهذه النبوءة تصرح باسم النبى ﷺ وهذا، ما يخبرنا به القرآن الكريم وتؤكده روايات المؤرخين وراة الأحاديث النبوية الشريفة، وحينما أخبر القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم قوله " (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (الصف:٦)

كان هذا الإخبار عن حقيقة وقعت بالفعل، ونطق بها المسيحيون ، ورواها عنه الحواريون، وإن حاول أعداء الإسلام تحريفها أو إغفالها ، بعد قيامهم بترجمة الكتاب المقدس ونقله من لغته الأصلية إلى اللغة العربية ، فالترجمة كما سبقت الإشارة ليست صورة صادقة تماماً للنسخة الأصلية ، بل هى تعبير عن بث التصور العقدى للمترجم .

وتحتوى هذه النبوءة الثالثة على جملتين كل منهما تنص على اسم (أحمد) أو (حمدا) Hamda.

أ) **الجملة الأولى** (وسوف يأتى أحمد لكل الأمم) والترجمة المحرفة لبعض الكتب المقدسة، تقول (يأتى مشتهى كل الأمم)[2].

ب) **الجملة الثانية** (ولسوف أزلزل كل الأمم ، وسوف يأتى حمدا Hamda لكل الأمم ، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد ، كذلك قال رب الجنود ، ولى الفضة ولى الذهب، هكذا يقول الرب للجنود، وفى هذا المكان أعطى السلام، هكذا يقول رب الجنود).

ويرى البرفسور عبد الأحد خطأ ترجمة كلمتى (حمدا) و (شالوم) من أنهما " الأمنية والسلام" ، لأن النبوءة على ضوء هذه الترجمة تصبح لا

(1) نفسه ص ٣٤
(2) نفسه ص ٤٩

شئ أكثر من (همس غامض مبهم ولا يفهم معناه " ثم يقول (ولكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة (حمدا) بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة (شالوم) بأنها ليست حالة مشروطة، بل هى قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها، وعندئذ لا بد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها مطابقة لشخصية (أحمد) وبعثته بالإسلام ، ذلك لأن كلمتى (حمدا) و (شالوم) أو (شلاما) تؤديان بدقة نفس الدلالة، والأهمية لكلمتى (أحمد) و(الإسلام)[1].

ويرى البرفسور عبد الأحد أن اسم (أحمد) هو أول اسم علم عرف بهذه الصيغة فى تاريخ البشر، وهو بحسب اعتقادى أعظم معجزة جاءت لصالح الإسلام[2]

إن لفظ (محمد) موجود بصورته مجسمة فى التوراة بطريقة نطقه بالعربية، وذلك فى الطبعات القديمة، حيث نجد فى سفر التكوين هذه الجملة .

" **وعن** إسماعيل سمعتك : ها أنا باركته وأيمنته بماد ماد ولفظ (بماد ماد) قريب جدا فى النطق من لفظ (محمد) مع تخفيف الحاء إلى ألف ممدودة شأن اللغة العبرية فى كثير من الألفاظ ، ولكن الترجمات الحديثة آثرت أن تحذف لفظ (ماد ماد) وتستبدله بلفظ (كثيرا جدا) ولفظ (أمة كبيرة).

وها هو النص بعد الترجمة (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه: ها أنا أباركه وأعزه وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا وأصله أمة كبيرة) تكوين ١٧ – ٢٠

ونلاحظ هنا :

١- أن الترجمة الحديثة صرفت النظر عن حرف الجر (الباء) وهو ذو مغزى فى الدلالة (... بماد ماد أى بمحمد)

٢- ترجمت الكلمتان (ماد ماد) بلفظى (كثيراً جداً) ولا معنى لهذه الترجمة إذ أن اللفظين لا اختلاف بينهما يجعل معنى إحداهما (

(1) نفسه ص ٥٠
(2) نفسه ص ٥٤

كثيراً) ومعنى الثانية (جداً) وهذا التعسف فى الترجمة يجعلنا نجزم بأن (ماد ماد) هو محمد[١].

وبحساب الجمل عند اليهود العبرانيين نجد أن لفظى (كثيرا جداً) وهى بالعبرية (بماد ماد) و(أمة كبيرة) وهى بالعبرية (لجوى جدول) هاتان اللفظتان العبرانيتان تساويان بحساب الجمل حروف كلمة (محمد) وهو(٢٩)[٢]

وقالت طائفة أخرى : بل قوله (بماد ماد) صريح فى اسم (محمد) قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرية قريبة من ألفاظ العربية[٣].

وقد جاء فى الإنجيل فى الإصحاح العاشر إشارة واضحة إلى سيدنا محمد ﷺ يقول عيسى عليه السلام (أنا أطلب إلى أبى حتى يمنحكم ويعطيكم " فر قليطا" ليكون معكم إلى الأبد) .

وفى الإصحاح الخامس عشر (وفار قليط روح القدس الذى يرسله أبى باسمى وهو يعلمكم، ويمنحكم جميع الأشياء ، وهو يذكركم ما قلته لكم ، وأنى أخبرتكم بهذا قبل أن يكون)

يقول الأنبا أثنا سيوس (إن لفظ " فار قليط " إذا حرف نطقه قليلاً يصير " بير بكليت " ومعناه الحمد أو الشكر وهو قريب من لفظ أحمد)[٤]

ويقدم الكتاب والمحللون فى علم مقارنة الأديان تحليلاً لكلمة (Paraclete) وفى اليونانية هكذا (Hepirahtoz) .

وترجمته : حماد وأحمد (أى كثير الحمد وهى أفعل تفضيل) .

وإذا ما انتقلنا إلى إنجيل (برنابا) فسوف نجده يذكر حقائق واضحة جلية تتعلق باسمه وصفته ﷺ، نذكر بعضها حسب نصوص هذا الإنجيل :

١- فلما انتصب آدم على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها (لا إله إلا الله محمد رسول الله)[٥].

---

(1) محمد (ﷺ) فى التوراة والإنجيل والقرآن – ابراهيم خليل احمد
(2) قاموس المنجد – لويس مخلوف / صرف الألف / الطبعة الكاثوليكية / بيروت
(3) نبوة محمد فى الكتاب المقدس– د /أحمد التار نقلا عن تفسير انجيل يوحنا للأنبا أثنا سيوس
(4) أضواء على النصرنيه د / طلعت عنام – ص ١٩٠ – ١٩١ دار الطباعة المحمدية
(5) انجيل برنابا ص ٥٩

٢- وفى قصة الخروج من الجنة يقول " فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس، فلما التفت آدم رأى مكتوبا فوق الباب (لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبكى عند ذلك وقال (أيها الابن عسى الله أن يريد أن تأتى سريعا وتخلصنا من هذا الشقاء)[١].

٣- ويبشر المسيح بمجئ محمد ﷺ فيقول (إن الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه، لأنى لست أهلاً أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه (مسيا) الذى خلق قبلى وسيأتى بعدى، وسيأتى بكلام الحق ولا يكون لديه نهاية)[٢]

شهادة علماء أهل الكتاب بنبوته ﷺ:-

تحدث القرآن الكريم عن هذه الشهادة فى عدة مواضع منها:

١- جاء فى سورة الشعراء قوله تعالى: " (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء:١٩٧). هذا استفهام توبيخى ، معناه : أن الله تعالى يوبخ العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ مع وجود آية عظيمة ودالة على صدقه ﷺ فى دعواه النبوة وهى معرفة علماء بنى إسرائيل بأنه النبى الخاتم ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى .

وجاء من سورة البقرة ") الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:١٤٦). يخبرنا الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعرفون صدق محمد ﷺ فى نبوته كمعرفتهم ألصق الناس بهم وهم أبناؤهم، شهد المنصفون منهم بذلك، وأنكرها الجاحدون .

المقام الثانى : بيان الحكمة من وقوع النسخ فى الشرائع ووقوعه فى الشريعة اليهودية.

أولاً :الحكمة من النسخ:-

إن الله تعالى لا يفعل ولا يقول شيئا عبثا ، ولا يتركه هملاً ، فقد " اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة، وصرحوا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والكذب فى أقواله، إن حكمة كل عمل ما يترتب

---

(1) نفسه ص ٦٣
(2) نفسه ص ٦٥

عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فساداً، خاصاً كان أو عاماً، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله، وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ... ومن القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث ، ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها ، يكون غاية لها ، وإن كان هذا فى العقل الحادث ، فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ... صنع الله الذى اتقن كل شئ ، وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ... ففيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام الكون بأسره، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدة، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ... فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته، والأصل الذي يرجع إليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) (الأنبياء:١٦ - ١٨).

وهكذا تتجلى حكمة الله عز وجل فى وضع كل شئ فى موضعه ، وإتقان صنع الله عز وجل ، الذى أتقن وأحسن كل شئ خلقه .

ولقد بين علماؤنا ومفكرونا العظام الحكمة الإلهية فى هذا الموضوع، فيقرر صاحب (إظهار الحق) أنه كما يوجد فى تبدل الظواهر الطبيعية والإنسانية حكم ومصالح تعود على الخلق، كذلك يوجد فى النسخ – كظاهرة شرعية حكم ومصالح ظهرت أولم تظهر مع انعدام وجه بين صفات الخالق والمخلوق ، يقول فى ذلك " فكما أن فى تبديل المواسم مثل الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وكذا فى تبديل الليل والنهار ، وتبديل حالات الناس مثل الفقر والغنى والصحة والمرض وغيرها حكما ومصالح من الله تعالى سواء ظهرت لنا أو لم تظهر، فكذلك فى نسخ الأحكام حكم ومصالح نظرا إلى حال المكلفين والزمان والمكان، الا نرى أن الطبيب الحاذق يبدل الأدوية والأغذية بملاحظة حالات المريض وغيرها على حسب المصلحة التى يراها، ولا يحمل أحد فعله على العبث والسفاهة

والجهل، فكيف يظن عاقل هذه الأمور فى الحكيم المطلق العالم بالأشياء بالعلم القديم الأزلى الأبدى؟ "[١]

نرى جمال الدين القاسمى يركز على أن النسخ تدرج فى التشريع، وان الهدف منه تربية الأمة وتهيئة نفوسها على قبول الأرقى فالأرقى، وتلك سنة الله فى خلقه : أفراداً وأمما ونباتا وحيوانا، فالرقى والتربية لا يتأتيان طفرة أو فجاءة ، وبذلك اكتمل الدين ، وتمت الشريعة، وأصبحت صالحة لكل زمان ومكان ، ونسخت بطبيعتها سائر الشرائع الأخرى التى تعرضت للتحريف والتغيير بفعل الكهان وعوامل الزمان ، حتى استحال العمل بها لمنافاتها للحياة البشرية من كل وجهه[٢].

كما يتحدث الأستاذ الإمام محمد عبده عن تاريخ الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام فيذكر أن اليهودية مرحلة طفولية، لا تؤمن إلا بالمحسوس، والمسيحية مرحلة فوق الحس وأدخل فى الوجدان ، ثم مرحلة الإسلام، مرحلة بلوغ البشرية سن الرشد والكمال فجمع الإسلام بين الديانتين، فختمت النبوات وانتهت بذلك الرسالات[٣] ثم يقرر أنه لهذه الأسباب ختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمأن العالم بما وصل إليه من العلم إلى أنه لا سبيل بعد لقبول دعوة برغم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر، هكذا يصدق نبأ الغيب " (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (الأحزاب:٤٠)[٤]

ويؤكد الشهيد سيد قطب على أن حديث القرآن الكريم عن قضية النسخ إنما هو للرد على اليهود فى حملتهم لتضليل المسلمين وخداعهم، والعبث بأصول عقيدتهم وشريعتهم، وفى الوقت ذاته تحذير للمسلمين من الجرى وراءهم، فالله وليهم وناصرهم وللنسخ حكمه وأسراره يقول فى ذلك " نزل القرآن يبين لهم – أى للمسلمين – أن نسخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذى يختار الأحسن لعباده ويعلم ما يصلح لهم فى كل وقت، وينبههم فى الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو ردهم كفارا بعد

---

(1) إظهار الحق– حمة الله المهندى – ص ٣١٨
(2) انظر تفسير القاصبى جـ٢ ، صـ٢١٩ : ٢٢٠ .
(3) رسالة التوحيد ص ١٤٢ ١٤٥
(4) نفسه ١٥٤

إيمانهم حسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم واختصاصهم برحمته وفضله، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم وانتدابهم لهذا الأمر العظيم ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غرض دفين[١].

ثم يقول " فالتعديل الجزئى وفق مقتضيات الأحوال فى فترة الرسالة هو لصالح البشرية ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله خالق الناس ومرسل الرسل ومنزل الآيات هو الذى يقدر هذا ... ولا يعجزه شئ وهو مالك كل شئ وصاحب الأمر كله فى السماوات والأرض، ومن ثم تجئ هذه التعقيبات (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ)(البقرة: من الآية١٠٦) (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)(البقرة:١٠٧). والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير، ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية، وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة، وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ﷺ لا تتفق مع الثقة واليقين"[٢].

"ثانيا : نماذج مما وقع من النسخ فى الشريعة اليهودية"

وإذا كان اليهود ينكرون النسخ ولا يقرون به ، فقد وقع فى شرعهم ما يبطل هذا الإنكار، بل ويعتبر من أدل الدلائل على النسخ.

يقول الشهرستانى فى نهاية الإقدام (وإن أنكروا ذلك فنكاح الأخوات فى زمن آدم عليه السلام، حتى قبل إنه استمر ذلك الحكم إلى زمن نوح، مما يوجب الإعتراف به ليحقق النسل والذرية، وتوبة عبدة العجل بقتل أنفسهم كان حكماً لم يكن قبل ذلك وصار مرفوعاً عن غيرهم فى التوراة، والختان فى اليوم السابع من الولادة حكم لم يكن لنوح وغيره بل ترك الختان كان مشروعاً لهم وأمر بذلك إبراهيم على الكبر، وأطلق له أن لا يختن إسماعيل فى طفولته حتى يصير مراهقا، وحظر على موسى ترك الختان فوق سبعة أيام، والتمسك بالسبت ما كان واجباً على الأنبياء قبل موسى عليه السلام، ثم صار واجبا على موسى، فما المستحيل أن يعود إلى ما كان مباحا، وكذلك الصيد فى يوم السبت وجميع الأفعال الدنيوية كان مباحا قبل موسى عليه السلام، فصار محظوراً على موسى، المواعدة من أدل

---

(1) فى ظلال القران الكريم ح١ ص ١٠٠ الطبعة (٣١) دار الشروق
(2) نفسه صـ١٠٢.

الدلائل على النسخ، إذ واعده المبقات ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وكذلك تلك التكاليف الشديدة على بنى إسرائيل ما كانت واجبة على من قبلهم)[١]

"فرقة العيسوية: وموقفها من نبوة محمد ﷺ والرد عليها "

تنسب هذه الطائفة إلى أبى عيسى اسحاق بن يعقوب الأصبهانى، وكان فى زمن أبى جعفر المنصور، زعم أنه نبى، وأنه رسول المسيح المنتظر، وكان يوجب تصديق المسيح ويعظم دعوة الداعى ، ويزعم أن الداعى هو المسيح ، واتبعه بشر كثير من اليهود ، ادعوا له آيات ومعجزات ، وخالف اليهود فى كثير من أحكام الشريعة الكثيرة المذكورة فى التوراة[٢]

وقد زعمت العيسوية أن محمدا ﷺ قد بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث بنسخ شريعة موسى عليه السلام .

قال إمام الحرمين فى الإرشاد " وذهبت طائفة من اليهود يسمون العيسوية إلى إثبات نبوة محمد ﷺ، ولكنهم خصصوا شرعه بالعرب دون من عداهم"[٣]

وقال ابن حزم فى الفصل (والعيسوية : هم أصحاب أبى عيسى الأصبهانى، رجل من اليهود كان بأصبهان ، ويقولون : إن محمدا ﷺ نبى أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بنى إسماعيل عليه السلام وإلى سائر العرب، كما كان أيوب نبيا فى (بنى عيص) وكما كان (بلعام) نبيا فى (بنى مواب) بإقرار من جميع فرق اليهود[٤]

ويرد عليهم بما قرره الغزالى فى مذهبهم هذا، حيث قال (وهذا ظاهر البطلان، فإنهم اعترفوا بكونه رسولا حقا، ومعلوم أن الرسول لا يكذب، فقد ادعى هو أنه رسول مبعوث إلى الثقلين، وبعث رسوله إلى كسرى وقيصر وسائر ملوك العجم، وتواتر ذلك عنه ، فما قالوه محال متناقض)[٥].

---

(1) نهاية الإقدام صـ٥٠١ وانظر الفصل ج١ ص ١٨١-١٨٢، ومن أراد المزيد من الأمثلة فليرجع إلى كتاب (إظهار الحق) فى الباب الثالث منه وقد ذكر فيه أمثلة وفيرة
(2) الملل النحل – الشهر ستانى – ح٢ صـ ٢٠ – ٢١
(3) الإرشاد / إمام الحرمين – صـ٣٣٨
(4) الفصل ح١ ص ١٧٩
(5) الاقتصاد د / ص ٩٩

ويرد عليهم القاضى الباقلانى بمنهج أخر فيقول (يقال لهم : إذا أوجبتم تصديق محمد ﷺ فى قوله : أنه نبى من عند الله ، فما أنكرتم من وجوب تصديقه فى قوله إنه قد بعث إلى كل أسود وأبيض ،اثنى وذكر، وبنسخ شريعة موسى ، وكل صاحب شرع قبله فإن كان قد كذب فى هذا القول مع ظهور المعجزات على يديه ، فما أنكرتم أن يكون كاذباً فى سائر أخباره، وهذا يبطل النبوة جملة)[١]

ثم يذكر الباقلانى أنهم قد يحتجون بأنهم لا يكذبون محمداً فى قوله هذا، بل يكذبون المسلمين فى ادعائهم عموم رسالته ﷺ فالكذب واقع من جهة أمته لا من جهته، ويرد عليهم الباقلانى بقوله " إذا جاز الكذب على المسلمين فى هذا الخبر الذى يدعونه على عيسى عليه السلام ، فلم لا يجوز عليهم فى جميع ما نقلوه عنه وفى نقلهم أعلام النبوة، ولم لا يجوز مثل ذلك على اليهود أيضاً، ونقلة البلدان والسير وهذا يعود إلى إبطال القول بالإخبار جملة ، وفى إطباقنا وإياهم على فساد ما أدى إلى ذلك دليل على فساد قولهم وصحة قول المسلمين فى هذا الباب "[٢]

المبحث الخامس

"موقف النصارى من نبوة محمد ﷺ"

اتفق النصارى مع اليهود في إنكار نبوة محمد ﷺ، فقد ذكر البغدادى أن الخلاف قد وقع مع اليهود والنصارى لأنهم أنكروا نبوة نبينا ﷺ[٣] .

وقد ذكر التفتازانى أن النصارى ليس لهم شبهة في إنكارهم نبوة محمد ﷺ إلا الحسد والبغى والعناد والإصرار على خصومة المسلمين، يقول "أنكر المشركون والنصارى والمجوس ومن يجرى مجراهم نبوة محمد ﷺ، بغيا منهم وحسدا ، وعنادا ولددا ، من غير تمسك بشبهة ..."[٤] . ولكن صاحب شرح المواقف بين أن النصارى قد أنكروا نبوة محمد ﷺ بالطعن في معجزته حيث قال "اعلم أن المنكرين لبعثته ﷺ خاصة قومان : أحدهما: القادحون في معجزته كالنصارى.... وثانيتهما: اليهود إلا العيسوية منهم ...."[٥].

---

(1) التمهيد الباقلانى ص ١٤٧ – ١٤٨
(2) نفسه ١٤٨ بتصرف
(3) أصول الدين ص١٥٨
(4) شرح المقاصد حـ٢ ص١٤٠
(5) شرح الماقف حـ٨ ص٢٨٥

ولا شك أن النصارى يقفون من (النسخ) موقفا يضاد موقف اليهود منه ، فهم يحرصون على إثباته حتى تصح رسالة عيسى عليه السلام ، قال الغزالى "وهم يجوزون النسخ، ولكنهم منكرون نبوة نبينا من حيث إنهم ينكرون معجزته في القرآن ..."[١]

وقد ذكر الباقلانى في التمهيد اتفاق النصارى مع اليهود في إنكار إعجاز القرآن الكريم والطعن فيه ثم ذكر جملة من هذه الطعون، ومنها: ماذا يمنع من كونه ليس بمعجز ، فهو من جنس كلامهم، غير أن محمدا كان أفصح العرب وأوجزهم وأحسنهم نظما، وما يمنع من أنه لو تحدى أصحاب الأفكار الوضعية الناس بأفكارهم، فلم يعارضوا أن يكون ذلك آية لهم؟ كما أنه من المحتمل أن تكون العرب قد عارضته، لكن الخوف من سيوف المسلمين قد منعهم من إظهار تلك المعارضة، أو أن تكون المعارضة قد وقعت بالفعل ولكنها اندثرت في خضم الأحداث ووقائع التاريخ حتى نسيت وذهب ذكرها وضبطها عن كل فرقة، لأن الله قد صرف دواعى الناس وهممهم من حفظها والتوفر على نقلها كما انه من الممكن أن يكون الصارف لهم عن المعارضة اعتقادهم أن القضاء على الإسلام يكون أنجح عن طريق الحرب والعداء[٢]

وقد تتبع الباقلاني شبههم وطعونهم واحدة واحدة ، وفندها وأثبت بطلانها وذلك كما يأتى :

أولا : ما أثاروه من شبهة أنه ﷺ أفصح العرب وأبلغهم ، فهو متفوق عليهم ، لأن القرآن من جنس كلام العرب والجواب: أننا نسلم بذلك ، ولكن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله ، وينال بالتعلم ، ولكن "ما أتى به النبى ﷺ من القرآن قد خرج عن حد ما يكتسب بالحذق، وعجز القوم عن معارضته ومقابلته مع إيثارهم لذلك واجتماع همهم له وتوفر دواعيهم عليه... إن الاية في القرآن أنه من جنس كلام العرب – وهم أعلم بجنس نظومهم – ومع ذلك فقد دهشت وطاشت عقولها فيما اتى به ، وتضاريت أحكامهم عليه فقالوا : هو سحر، وقالوا نارة (معلم مجنون) وقالوا مرة (أساطير الأولين) وقالوا

---

(1) الاقتصاد ص١٠٠
(2) التمهيد ص١٢١ :١٢٣

مرة (سلمان يلقنه ويلقى إليه) فدل هذا على أنه من عند الله تعالى، وليس من جنس ما يقدرون عليه[١].

ثانيا: وأما قولهم بأن الخوف من سيوف المسلمين قد منع القوم من إظهار المعارضة.

والجواب: أنه لو كان ما ادعوه صحيحا لجاز نقله وذكره، كما ان تاريخ الدعوة يكذب هذا ويبطله، فقد كان التحدى في فترة الدعوة المكية، فترة ضعف المسلمين وقلة عددهم، كما يقال لمدعى ذلك يهوديا كان أو نصرانيا: لو كان ما قلتموه صحيحا لجاز لمدع أن يدعى أن موسى وعيسى قد عورضا في معجزاتهما وقد منع الخوف من سيوفهم نقل هذا ، أو يمنعه الخوف من سيوف المسلمين لأن تكذيب موسى وعيسى تكذيب لمحمد[٢]

ثالثا: وأما ما زعموه من انه ربما تكون المعارضة قد وقعت فعلا ، ولكنها اندثرت ونسيت فجوابه : انه غير جائز لأنه إفساد للأدلة وسد لطريق العلم بإثبات النبوة . لأنه يجوز أن يكون جميع الرسل قد عورضوا في آياتهم، وصرف الله دواعى الناس عن نقل ذلك وحفظه، فلا يكون هناك طريق إلى العلم بصدق واحد منهم وقيام حجة على أمته، بل إن هذه الشبهة لاتقع إلا من الطاعن على سائر النبوات، كما أن فيها ايجابا لعجز الله تعالى على إقامة الأدلة على صدق الصادق والتفرقة بينه وبين الكاذب[٣]

رابعاً: وأما ما ادعوه من اعتقادهم بأن السيف أنجع في أمره وأحسم لمادة شبهته وليس العجز عن المعارضة، فجوابه: أنه (لو كان في قدرة القوم التكلم بمثل القرآن لأتوا به مع نصب الحرب كما أنهم كانوا يأتون مع ذلك بالشعر والرجز والخطابة والرسائل ... وفى ترك ذلك دليل على بطلان ما قالوه[٤].

ويقول الغزالى مجيبا عن تلك الفرية " والجواب أن ما ذكروه هوس ، فإنما دفع تحدى المتحدى بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف مع ما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبى وشن الغارات[٥].

---

(1) التمهيد ص١٢١- ١٢٢
(2) نفسه صـ١٢٢ - ١٢٣
(3) نفسه صـ ١٢٣
(4) نفسه صـ ١٢٤- ١٢٥
(5) الاقتصاد صـ١٠١

وقد رد الامام الغزالى عليهم ردا إجماليا حيث قال (وفى إثبات نبوته بالمعجزة طريقان):-

الأول: التمسك بالقرآن فإنه لا يمكن إنكار تحديه بالقرآن ولا يمكن إنكار اقتدار العرب على طريق الفصاحة، ولا يمكن إنكار حرصهم على دفع نبوته بكل ممكن حماية لدينهم ودمهم ومالهم، وتخلصا من سطوة المسلمين وقهرهم، ولا يمكن إنكار عجزهم لأنهم لو قدروا لفعلوا، فإن العادة قاضية بالضرورة بأن القادر على دفع الهلاك عن نفسه يشتغل بدفعه ، ولو فعلوا لظهر ذلك ونقل.

الطريقة الثانية: أن نثبت نبوته بجملة من الأفعال الخارقة للعادة (بقصد المعجزات الحسية) التي ظهرت عليه... وكلها دليل على صدقه)[١].

أقول: إذا كانت هذه حجة النصارى في إنكارهم نبوة محمد ﷺ على المستوى القديم في الفكره والعداء، وإذا تلاقوا في ذلك مع اليهود، فإن التاريخ يعيد نفسه معهما فكرا وعداء للإسلام ولنبي الإسلام عن طريق (علم الاستشراق).

ففى كتابه "الاستشراق والمستشرقون"، يذكر الدكتور/ مصطفى السباعى ما دونه عن الاستشراق والمستشرقين الذين التقى بهم الحقائق الآتية:

١) إن المستشرقين، في جمهورهم ، لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيسا، أو استعماريا، أو يهوديا ، وقد يشذ عن ذلك أفراد

٢) إن المستشرق – بصورة عامة- ينبعث من الكنيسة ، وفى الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارات الخارجية جنبا إلى جنب، يلقى منها كل تأييد.

٣) إن الدول الاستعمارية – كبريطانيا وفرنسا – ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليدية، لكونه أداة هدم للإسلام وتشويها لسمعة المسلمين [٢] .

ويقول د/ محمد البهى شارحا أساس علم الاستشراق وبنيته "قام أساس الاستشراق على أن الإسلام من صنع "محمد" ، فالإسلام دين بشرى ، وعلى أن الرسول لفق فيه من المسيحية واليهودية، وأنه حرف في نقله تعاليم هاتين الديانتين... نعم قام الاستشراق على مثل هذا الاساس ، ولكن

---

(1) الاقتصاد في الاعتقاء ص١٠٠ -١٠١
(2) الاستشراق والمستشرقون/د/ مصطفى السباعى ص ٧٢- ٧٣- ط أولى – دار السلام القاهرة

المستشرقين يختلفون فيما بينهم في تصوير آرائهم وفى تقرير شروحهم لمبادئ الاسلام" [١]

نعم ، لقد ركز المستشرقون- يهود ونصارى – على عدة أمور، أهمها:

١- إنكارأن يكون القرآن الكريم كتابا سماويا من عند الله ، وإنما هو من عند محمد.

٢- التشكيك في صحة رسالة محمد ﷺ ومصدرها الإلهى .

٣- إنكارها كون الإسلام دينا من عند الله، وإنما هو ملفق من الديانتين اليهودية والنصرانية[٢]

ولذلك نرى المستشرقين قد ركزوا في دراستهم على بشرية القرآن، فهم "يجعلون قرآن الرسول صنعة بشرية، لاوحيا منزلا من عند الله...فالعمدة في الاستشراق إذن محاولة التدليل على بشرية القرآن، وهم يعرضون فكرة (بشرية القرآن) في إحدى صورتين :

الصورة الأولى: أنه (انطباع) في نفس محمد، نشأ عن تأثره ببيئته التى عاش فيها... بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية .

الصورة الثانية: أنه "تعبير" عن الحياة التى عاش فيها محمد بما فيها من المكان والزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية[٣].

وبعد ذلك أقول إن حرب اليهود والنصارى ومحاولات تشكيكهم فى الإسلام وتشويه صورة المسلمين حرب مستعرة بكل ما أوتوا من إمكانيات مادية وفكرية، فما أكثر المواقع التى يبثونها ليل نهار على شبكة الانترنيت لتحقيق هذا الغرض، وعلى الجانب الأخر نجد أن المسلمين وكأن الأمر لا يعنيهم فلا يهتمون بمثل هذه المواقع ردا ودفعا لكيدهم فى نحورهم بالحجة والبرهان ، فنسأل الله تعالى أن يحس المسلمون بمسئوليتهم تجاه دينهم ، وصدق الله حين قال (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)(الحج: من الآية٤٠). وصدق حين قال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد:٧)

---

(1) الفكر الاسلامى الحديث مصلة بالاستعمار الغربى – ص٦٦- ٧٦

(2) في الثقافة الاسلامية د/ أحمد نوفل /ص٥٤ – ط أولى دار المعارف – عمان ١٩٨٤

(3)الفكر الاسلامى الحديث مصلة ص ٢٢٥

أهم مراجع البحث

- القرآن الكريم – كتاب الله الخالد
- صحيح الإمام مسلم
- إحياء علوم الدين / الإمام الغزالى / مطابع الشعب .
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد / إمام الحرمين الجوينى / تحقيق د/ محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم عبد الحميد/ مكتبة الخانجى ١٩٥٠ الاستشراق والمستشرقون / د/ مصطفى السباعي ط أولى / دار السلام / القاهرة .
- الإسلام بين التنوير والتزوير / د/محمد عمارة/ ط أولى / دار الشروق ١٩٩٩ .
- الإسلام والعقل / د/ عبد الحليم محمود / دار المعارف / بدون تاريخ .
- أصول الدين / البغدادي /ط أولى / أستا نبول ١٩٢٨.
- إظهار الحق / رحمة الله الهندي .
- الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده / جمع وتحقيق د/ محمد عمارة / مطبعة القاهرة .
- إغاثة اللهفان / ابن القيم / المكتبة القيمة .
- الاقتصاد في الاعتقاد / الإمام الغزالى / مطبعة مصطفى الحلبي .
- البدء والتاريخ / أبو زيد أحمد بن سهل البلخى أو هو المطهر ابن طاهر المقدسى
- تاريخ الفلسفة في الإسلام / دى بور / ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة .
- تاريخ اليعقوبى / أحمد بن آبى يعقوب ابن جعفر بن وهب بن واضح / مطبعة بيروت ١٩٦٠ .
- تبصرة الأدلة / أبو المعين النسفى / تحقيق د/ محمد الأنور حامد عيسى / رسالة دكتوراة / أصول الدين بالقاهرة .

- التراث والتجديد / دكتور حسن حنفي / الأنجلو المصرية / بدون تاريخ .
- تفسير الالوسى / دار الفكر / بيروت.
- تفسير التحرير والتنوير / محمد الطاهر ابن عاشور / الدار التونسية للنشر .
- تفسير سيد قطب / ط ٣١ دار الشروق ٢٠٠٢ .
- تفسير القاسمى / جمال الدين القاسمى/ دار إحياء الكتب العربية / مطبعة عيسى الحلبي.
- تفسير المنار / الشيخ رشيد رضا / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٤ .
- التفسير الماركسي للإسلام / دكتور محمد عمارة / ط أولى ١٩٩٦ / دار الشروق.
- التمهيد / الإمام الباقلانى / تعليق وتقديم محمود محمد الخضيرى ومحمد عبد الهادي أبو ريده / دار الفكر العربي .
- رسالة التوحيد / الشيخ محمد عبده / تحقيق دكتور محمد عمارة / دار الهلال.
- شرح الأصول الخمسة / القاضي عبد الجبار / تحقيق د/ محمود عثمان / مكتبة وهبة القاهرة.
- شرح البيجورى على جوهرة التوحيد / الشيخ إبراهيم البيجورى / طبعة خاصة بالمعاهد الأزهرية ١٩٧٩ .
- شرح العقائد النسفية / الإمام التفتازانى / تحقيق طه عبد الرؤوف سعد / الأزهرية للتراث .
- شرح المقاصد/ الإمام سعد الدين التفتازانى .
- غاية المرام في علم الكلام / الإمام سيف الدين الآمدى / تحقيق حسن عبد اللطيف / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- فتاوى عن الشيوعية/ د/ عبد الحليم محمود / دار المعارف القاهرة .

- الفرق بين الفرق / البغدادي / تحقيق طه عبد الرؤوف سعد / مؤسسة الحلبي .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل / ابن حزم الأندلسي .
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي / د/ محمد البهي .
- محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن / إبراهيم خليل أحمد .
- المغنى في أبواب التوحيد والعدل/ القاضي عبد الجبار .
- مفهوم النص/ د/ نصر حامد أبو زيد / المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ط ٣ / ١٩٩.
- الملل والنحل / الشهر ستانى / تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل / مؤسسة الحلبي وشركاه .
- من العقيدة إلى الثورة / دكتور حسن حنفي / مكتبة مدبولي / القاهرة .
- نقد الخطاب الديني / د/ نصر حامد أبو زيد طبعة القاهرة ١٩٩٢
- نهاية الإقدام في علم الكلام / الشهر ستانى / تصحيح الفريد جيوم